المسلم والعلم
تحدي الهزيمة وارتباك الاستجابة

أ.د شافية صدّيق
كلية العلوم الإسلامية/جامعة الجزائر1

يا أمة الإسلام، آيات معدودات في الفرائض اجتذبت فرعاً من علم الرياضيات، فما بالكم أيها الناس بسبعمائة آية فيها عجائب الدنيا كلها... لماذا لا نعمل في آيات العلوم الكونية ما فعله آباؤنا في آيات الميراث؟ الشيخ طنطاوي جوهري: الجواهر في تفسير القرآن ج3 ص15

القرآن الكريم كتاب المسلمين جميعا يسمعه كل مسلم فيتمثل معانيه على قدر استطاعته بل هو كتاب الناس جميعا المتدينين والملحدين.بنت الشاطئ: القرآن وقضايا الإنسان ص315

خلق الله عز وجل الكون معجزا بأسراره العميقة وأكرم الإنسان بعقل قادر على الوصول الى بعض تلك الأسرار بقدر انتظامه في الاجتهاد والتعمق في سماع نداء الفطرة:﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾[فصلت .53]

تنبه أحد النازفين حزنا لأمة أقرأ سائلا عن مصير المشرفين عن مناظرات الإعجاز العلمي في زمنها الذهبي وما هي الحوصلة العملية في مخابر البحث ودوائر الاكتشافات والاختراعات التي تفيد البشرية، ونشرت إحدى الصحف الغربية تحقيقا مع بعض العلماء الغربيين الذين جعلتهم الكاميرا الإسلامية يصدعون بأن القرآن معجز وتبين أن الكواليس وعمليات التركيب والمتاجرة الإعلانية كانت

حاضرة و يبدو أن تحقيقا تاريخيا مسلما لابد أن يقوم به حكماء الأمة لتطهير ساحة ارتفع فيها صوت الجعجعة الهوائية أو ما أسمته بعض الدوائر bucaillisme ويصل الباحث إلى الكثير من المفاجآت عندما يحاول تتبع ما كان يبث، والحقيقة الواقعية سواء حول الشخصيات أو الأثر الحقيقي لتلك المهرجانات.

الإشكالية التي تطرح بكل موضوعية: هي هل الصدمة التي تلقاها العقل المسلم جراء هزيمته أمام العقل الغربي في مجال الاستخلاف والتمكين هي فقط السبب وراء الأخطاء المنهجية والأخلاقية التي صحبت موجات التفسير العلمي والإعجاز العلمي وأسلمة المعرفة؟ والسؤال ناقشته دوائر عديدة، وهناك تراكم حول الموضوع فيه مادة مهمة لتصويب المسار تصدت لها عقول مسلمة تخترق ضباب التخدير العام أو الاستسلام للحلول السهلة وتستثمر أيضا في الايجابيات وبعض الثمار الطيبة التي صاحبت تلك الأخطاء.

علاقة المسلم بالكون لا تختلف عن كل الكائنات الحية المسبحة بذكر الله ويتعامل معه وفق ضوابط حددتها الرؤية القرآنية بوضوح تستجيب لها الفطرة المتحررة من كل القيود والسجون.صنف بعض الدارسين مباحث الإعجاز والتفسير العلمي ضمن علم كلام جديد ينافح على العقيدة وفق اللغة الغالبة اليوم، ويدفع الشبهات عن الدين بآليات جديدة ومنهج يعتمد التسليم المسبق بأن كل ما يصل إليه العلماء اليوم بعد سنوات من التضحيات بالنفس والوقت والمال قد سبق الإشارة إليه في القرآن والسنة.

الجيل الجديد اليوم الذي طور لغة تخاطب أقرب إلى الشفرة وأصبحت نقراته على مختلف الأجهزة سمفونية تتناغم معها أرواحهم السابحة في إحداثيات جديدة سيسخر من مسرحيات المناظرات التي داعبت أحلام أناس طيبين.

كانت أشرطة كوستو Jacques-Yves Cousteau[1] وسفينته الشهيرة تستفز شباب يحب المغامرة المؤمنة، وكانت قصص تضحياته وإصراره على المواصلة تهز الأنفس المختفية تحت أغطية التسليم الساذج، وكانت ردود البعض أن ذلك الشيخ الذي فقد الكثير من ثروته وبعض أفراد عائلته وصل بعد كل ذلك العناء إلى:"مرج البحرين". وغابت وسط كل ضجيج الاحتفالات أن الرجل لم يسلم وأن موقفه من الآية ليس كما سوقه لنا بعض جنود الهزيمة، وأن الفكرة تقرأ في تاريخ الأديان بطريقة أخرى لا تضر القرآن في شيء ولكنها تربك بقايا الحياء لدى البعض:

ماذا عسانا أن نصنع لنرسخ الإيمان في ضمائر الشباب وعقولهم ممن يدرسون علوم العصر ويدخلون المشرحة والمعمل والمصنع ويتابعون جهود علماء الفضاء ورحلات القمر هل نأتيهم بقرآن غير هذا الذي نزل على نبي أمي في بيئة بدوية، أو نضحك على عقولهم ببدع من التأويلات تقدم لهم من القرآن كل علوم الدنيا وعصريات التكنولوجيا أبناء الجيل ليسوا من البلاهة والغفلة والسذاجة بحيث يجوز عليهم أن يقول قائل أننا عرفنا الطائرات النفاثة إذا عذنا برب الفلق من شر النفاثات في العقد واهتدينا إلى أسرار الذرة بمثقال ذرة[2].

المسألة عقدية بالأساس:

انقسم علم الكلام إلى جليل ودقيق، وكان نطاق دقيق الكلام مباحث المادة وصفاتها وتحولاتها وتفاعلاتها والحركة والسكون والنقل والوجود والعدم. وجعلت

(1) انظر دراسات كثيرة حول إسهاماته العلمية وانظر موقعه الرسمي هو توفي في 1997.

(2) عائشة عبد الرحمان: القرآن وقضايا الإنسان الإسكندرية دار المعارف 1999.ص426.

من مصادر الاستدلال على مسائل العقيدة:الدليل النقلي والدليل العقلي والفطرة والكشف والإلهام وحقائق العلم التجريبي وبالتالي التفسير العلمي والإعجاز العلمي وحتى أسلمة المعرفة بكل الحوصلة الايجابية والسلبية تدخل في صميم المباحث العقدية دون تجاوز للدوائر المتخصصة ولكن أيضا لعلماء التخصصات المختلفة ورؤيتهم لما قيل وتقييمه وفق المنهج العلمي الدقيق.

أخرج لنا الشغوفون كثيرا من الكتب يحاول أصحابها فيها أن يحملوا القرآن كل علوم الأرض والسماء وأن يجعلوه دالا عليها بطريق التصريح أو التلميح اعتقادا منهم أن هذا بيان لناحية من أهم نواحي صدقه وإعجازه و صلاحيته للبقاء.[1]

هذا الشغف بإلحاق كل العلوم ومنجزاتها بآيات القرآن الكريم يقابله إفلاس علمي وتقني في العالم الإسلامي إلا بقايا أرواح تكابد من أجل بصيص خافت:تقرير اليونيسكو عن العلوم في العالم عام2010 يبين أن الإنفاق على البحث العلمي في العالم العربي لا يزال متدنيا ويشير التقرير إلى أن مستوى الإنفاق المحلي والإجمالي على البحث والتطوير لا يزال متدنيا في البلدان العربية منذ حوالي أربعة عقود حيث إنه يتراوح بين 0.1 في المائة و1 في المائة من الناتج المحلي الإجمالي، كما انه لا يزال دون المعدل المتوسط على المستوى العالمي في الدول العربية تعد ما لا يزيد على 373 باحثا لكل نسمة، فضلا عن ذلك فان كثيرا من العلماء العرب يعيشون في العالم الغربي ولا يضيفون إلى الناتج المحلي الإجمالي لبلدانهم الأصلية، والإحصائيات بنفس لون الخطر تخص مجالات حيوية أخرى

(1) التفسير و المفسرون:ج2 القاهرة مكتبة وهبة 2000ص364.

متوفرة في التقارير الدورية التي تصدرها المنظمات الأممية والإقليمية التي يساهم في إعدادها خبراء محليون وعالميون.[1]

الأزمة في عمقها غير جديدة و تظهر دائما في منعرجات شبه صدامية مع مرجعيات متحدية ، لذلك لابد من ربط الظاهرة بزمن ومكان ظهورها:

المثبتون يعتقدون أن القرآن حوى جميع العلوم دون استثناء وهي فكرة قديمة نشأت مع دخول العلوم الحكمية اليونانية في الفكر الإسلامي، وعرفت بقضية التوفيق بين الحكمة والشريعة في بحوث فلاسفة الإسلام كابن رشد وغيره من الفلاسفة المشائين، والأساس الذي قامت عليه هذه الفكرة هو اعتبار أن كلا من الشريعة والحكمة حق، والحق لا يضاد نفسه، فلابد إذن من التقاء الحكمة

(1) هناك تقارير دورية للمنظمات المختصة ونظر مثلا:أزمة البحث العلمي والتنمية:د.فهد العرابي الحارثي (رئيس مركز أسبار للدراسات والبحوث والإعلام) العالم ينفق حوالي 2,1% من مجمل دخله الوطني على مجالات البحث العلمي، أي ما يساوي حوالي 536 بليون دولار. ويعمل في مؤسسات البحث العلمي في العالم ما يقارب 3,4 مليون باحث، أي بمعدل 1,3 باحث لكل ألف من القوى العاملة. وقد قدر إنفاق الولايات المتحدة الأمريكية واليابان والاتحاد الأوروبي على البحث والتطوير بما يقارب 417 بليون دولار، وهو ما يتجاوز ثلاثة أرباع إجمالي الإنفاق العالمي بأسره على البحث العلمي. والولايات المتحدة وحدها تنفق سنوياً على البحث العلمي أكثر من 168 بليون دولار، أي حوالي 32% من مجمل ما ينفق العالم كله. وتأتي اليابان بعد الولايات المتحدة: 130 بليون دولار، أي ما يوازي أكثر من 24% من إنفاق دول العالم. ثم يتوالى بعد ذلك ترتيب دول العالم المتقدم: ألمانيا، فرنسا، بريطانيا، إيطاليا، كندا، ليكون مجموع ما تنفقه الدول السبع أكثر من 420 بليون دولار. ففي هذه الدول السبع مليونان و265 ألف باحث، يمثلون أكثر من 66% من مجموع الباحثين في العالم، ويكلف كل باحث منهم حوالي 185 ألف دولار في السنة.وقد تصدرت الدول الاسكندينافية قائمة الدول الأوروبية الداعمة للبحث والابتكارات، وذلك بالنسبة إلى نواتجها القومية، فجاءت النسب التي خصصتها تلك الدول للبحث والتطوير على هذا النحو: السويد 4.27%، فنلندا 3.51%، الدانمرك 2.6%. وتأتي بولندا بنسبة 0.59% في المرتبة الأخيرة بين الدول الأوروبية.

أما باقي دول العالم (ومنهم طبعاً العرب)، فلا يتجاوز إنفاقهم على البحث العلمي أكثر من 116 بليون دولار. وهذا المبلغ ليس لأمة العرب فيه سوى 535 مليون دولار ليس غير، أي ما يساوي 11 في الألف من الدخل القومي لتلك البقية من العالم!! ومعظم الدول العربية لا تظهر أرقامًا وإحصاءات عن الباحثين والبحث العلمي، فإذا ظهر شيء من ذلك فيكون غير مطمئن: الإمارات 0.6%، والكويت 0.2%، والأردن 0.3%، وتونس 0.3%، وسوريا 0.2%، ومصر 0.2%.(8) كما أن جملة الباحثين في الوطن العربي هم أقل من 16 ألف باحث، وتكلفة الباحث الواحد في السنة لا تتعدى 36 ألف دولار. وفي إحصائيات صادرة عن الجامعة العربية في العام 2006م أنه يقابل كل مليون عربي 318 باحث، في الوقت الذي تصل فيه النسبة في الغرب إلى 4500 باحث لكل مليون شخص.

والشريعة في النتائج و إن اختلفت مناهجهما في البحث عن الحقيقة .[1]

التفسير والإعجاز

قد تلتبس لدى البعض الحدود الفاصلة بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي خصوصا عندما تشتد حمى المزايدات والأصوات المرتفعة المتصارعة على غنائم الدنيا، ويفتن الناس بخطاب الإعجاز لإخفاء عجز الإنجاز. يعرف محمد حسين الذهبي التفسير العلمي بوضعه في سياقه التاريخي:

وقد ظهر نوع من تفاسير الاختصاص وقع الاهتمام فيها بعدد من الآيات تمت بموضوعها إلى العلوم الحديثة بصلة كالآيات التي يذكر فيها الكون بأرضه وسمائه وكواكبه، والآيات التي تتحدث عن الإنسان في خلقته وخلقه وعاداته في تفرده وفي اجتماعه.

واتخذ التأليف في هذا النوع من الآيات صورتين:

صورة نسجت على منوال مناهج بعض المفسرين بتقسيم السورة إلى مقاصد، وتحليل كل مقصد بعد ذلك بالوقوف على الآيات بعد توزيعها إلى مجموعات تتحد في الموضوع، وتفسير كل مجموعة منها لفظيا أولا ثم بما يقتضيه الكلام الوارد فيها من بيان يعتمد علوم الأثر أو علوم العقل، وأبرز من تبنى هذه الطريقة من القدامى الفخر الرازي ومن المحدثين الشيخ طنطاوي جوهري ؛ الدراسة المركزة على الآيات العلمية أو الآيات الكونية الواردة في القرآن يذكرها المؤلف عادة دون تقيد بترتيبها في المصحف بل يستشهد بما تيسر منها كلما تطلب منه البحث ذلك.[2]

(1) هند شلبي: التفسير العلمي بين النظريات والتطبيق تونس 1985/1406.ص44.

(2) التفسير والمفسرون: م،م،س.ص349.

ويوضح الشيخ الذهبي أن مسألة بناء الجسور بين حقائق العلم وحقائق الدين في التراث الإسلامي:

طرحت بعد أن حذق المسلمون العلوم الحكمية التي نقلوها عن اليونان وعادت إلى الظهور في عصرنا الحاضر وتتمثل في المقارنة بين الحقائق الصادرة عن الدين والحقائق الصادرة عن العلم للخروج بأحد الاستنتاجين التاليين: الجمع بين الحقيقتين والفصل بينهما.

والفرق بين الإعجاز العلمي والتفسير العلمي هو أن الإعجاز العلمي صورة من صور التفسير العلمي، فكل إعجاز تفسير علمي، وليس كل تفسير علمي إعجازا[1].

و لم ينحصر الفرق بين الإعجاز والتفسير في التعريفات، بل نلحظ تفاوتا في طريقة التقسيم، وتبني نوع دون آخر من قِبَل رواد التفسير العلمي. ويختار الباحث محمد بن عبد الرحمان الشايع تعريفا إجرائيا للتفسير العلمي وهو: تفسير القرآن الكريم بحقائق العلم التجريبي[2]. وهذا التعريف يختزل ما أراده الذهبي:

التفسير العلمي التفسير الذي يحكم الاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها فالقرآن في نظر أصحاب هذه الطريقة يشمل – إلى جانب العلوم الدينية الاعتقادية والعلمية – سائر علوم الدنيا على اختلاف أنواعها و تعدد ألوانها[3].

ما هي الملابسات الذاتية والموضوعية التي بدأ فيها هذا النوع الخاص في التعامل

(1) التفسير والمفسرون:م،م،س.ص349.

(2) محمد بن عبد الرحمان الشايع: التفسير بمكتشفات العلم التجريبي بين المؤيدين والمعارضين:مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السنة الرابعة، العدد الرابع رجب 144/فيفري1991 ص20-54.

(3) الذهبي التفسير والمفسرون:م ،م ،س .ص55.

مع القرآن ثم السنة؟في الأزمنة الحديثة تفاصيل الإجابة موجودة بيننا،ولكن ما الذي دفع أبا حامد الغزالي إلى الجزم بأن كل العلوم موجودة في القرآن، وما الذي دفع البعض إلى اليقين المطلق بأن ذلك يعني الاكتفاء بالقرآن بدل المخابر ومراكز البحث؟

أبو حامد الغزالي منظومة فكرية خاصة ومسار حياتي وعلمي فريد واختياراته الفكرية والعلمية لا تجعله يدفع ثمن من استن بها، وإن كان موقعه المرجعي سبب ما يشبه الفتنة. ونجد بين كلمات أبي حامد الغزالي ما سبق أن أشار إليه في باب العلم من الإحياء من تضخم عدد المهتمين بالفقهيات وقلة المهتمين بالعلوم الأخرى حتى خلت مدن من أطباء مسلمين يقول في الجواهر:

في انشعاب سائر العلوم من القرآن:فلن يوجد في هذه العلوم ما عددناها وما لم نعدها ليست أوائلها خارجة عن القرآن فان جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى وهو بحر الفعال وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له وفي القرآن مجامع علم الأولين والآخرين[1].

ويضيف متوجها لمن لم يركز على التأمل في هذه المباحث: لا تسرح في ميدان معرفة الصنع ولا تتفرج فيه واشتغل بأشعار المتنبي وغرائب النحو لسيبويه وفروع ابن الحداد في نوادر الطلاق وحيل المجادلة في الكلام فذلك أليق.[2]

ليس هناك دعوى صريحة لفهم فعال لآيات القرآن الكريم بالدفع نحو شعاب البحث التطبيقي بل هناك إمعان في الدفع بالروح إلى السمو وبعيدا عن ترابية الواقع الذي يجب أن يتعفر فيه المؤمن.ويقول في الإحياء في كتاب آداب تلاوة القرآن:

لا تنقضي عجائبه، ولا تتناهى غرائبه،لا يحيط بفوائده عند أهل العلم تحديد، ولا

(1) في الفصل الخامس من:"جواهر القرآن،طبعة الموقع الهندي المصطفى.

(2) في الفصل الخامس من:"جواهر القرآن،طبعة الموقع الهندي المصطفى.

يخلقه عند أهل التلاوة كثرة الترديد،هو الذي أرشد الأولين والآخرين.

واستشهد في الباب الأول في فضل القرآن وأهله وذم المقصرين في تلاوته بابن مسعود:إذا أردتم العلم فانثروا القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين.

وفي الباب الثالث في أعمال الباطن يقول:.لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوهاً. ويضيف قال بعض العلماء: لكل آية ستون ألف فهم وما بقي من فهمها أكثر. ويستشهد بقول آخر:القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم إذ كل كلمة علم. ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحد ومطلع.

لمحاولة فهم أبعاد هذه الأفكار من دفع الناس في اتجاه الاكتفاء بالقرآن مصدرا للعلوم نقرأ مفاضلته بين العلوم في كتابه فاتحة العلوم:

السبب الذي به يدرك شرف العلوم وذلك يراد به إما شرف الثمرة وإما ثقة الدليل وقوته وذلك كعلم الدين وعلم الطب فان ثمرة أحدهما الحياة الأبدية وثمرة الآخر الحياة الفانية،فيكون علم الدين أشرف وأهم ومثل علم الحساب وعلم النحو فان الحساب أشرف لوثاقة براهينيه وأدلته، وإذا أضيف الحساب إلى الطب فالطب أشرف باعتبار ثمرته والحساب أشرف باعتبار براهينه وقوة أدلته،وإذا قوبل بينهما كان ملاحظة الثمرة أولى لأن الدليل لا يراد لعينه بل لأجل الثمرة والفائدة،فلذلك كان الطب أهم وأشرف وإن كان أكثره بالتخمين وبهذا يتبين أن أشرف العلوم العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم فإياك أن ترغب إلا فيه وأن تحرص إلا عليه.[1]

عصر أبي حامد و أزمته الروحية والنفسية بعد أن غرف من العلوم النظرية في

(1) فاتحة العلوم ط1 طبع بالمطبعة الحسينية المصرية بمعرفة السادات أحمد ناجي الجمالي ومحمد أمين الخانجي وأخيه 1322ه ص59 النسخة الأصلية علة موقع المصطفى.

عصره عوامل أساسية لتفكيك المنظومة الغزالية مرتبكة ومربكة رغم ضخامة المنتوج الفكري لذلك لا يمكن الجزم دائما بإمكانية رسم صورة حقيقية لأبعاد اختياراته الفكرية الملامسة بعمق لشغاف العقيدة ومفاضلته للعلوم لا تتوقف عند ما سبق بل يضيف تشويشا للمتأمل:

ولاشك في منفعة الخمر في تعديل المزاج وتقوية الطبع وتقوية الدماغ،والميسر في تشحيذ الخاطر بل الرياضة باللعب بالشطرنج يشحذ الخاطر فلا يجوز الاشتغال به والتعرض لآفاته،وكذلك النظر في علم اقليدس والمجسطي ودقائق الحساب والهندسة والرياضة بها تشحذ الخاطر وتقوى النفس ونحن نمنع منها لآفة واحدة وهي أنها من مقدمات علم الأوائل ولهم مذاهب فاسدة ورائها، وإن لم يكن في نفس علم الهندسة والحساب مذهب فاسد متعلق بالدين ولكن نخاف منه الانجرار إليه.[1]

هل أبو حامد ينسف العلوم التي تحقق حسن الاستخلاف وفي أحسن الأحوال ينفر منها؟الجواب المتسرع غير مجد ولكن المعطيات لفعل ذلك بموضوعية أكثر تضاف لها ما جاء في: المنقذ من الضلالة تحت عنوان:أقسام علومهم:

أعلم: أن علومهم – بالنسبة إلى الغرض الذي نطلبه – ستة أقسام: رياضية، ومنطقية، وطبيعية، وإلهية، وسياسية، وخلقية.

1 – أما الرياضية: فتتعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيئة العالم، وليس يتعلق شيء منها بالأمور الدينية نفياً وإثباتاً، بل هي أمور برهانية لا سبيل إلى مجاحدته بعد فهمها ومعرفتها. وقد تولدت منها آفتان: الأولى: أن من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ومن ظهور براهينها، فيحسن بسبب ذلك اعتقاده في الفلاسفة، ويحسب أن جميع علومهم في وضوح وثاقة البرهان كهذا العلم. ثم يكون قد سمع من كفرهم وتعطيلهم وتهاونهم بالشرع ما تناولته الألسن فيكفر بالتقليد المحض

(1) م،ن.ص56.

ويقول: لو كان الدين حقاً لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم! فإذا عرف بالتسامع كفرهم وجحدهم استدل على أن الحق هو الجحد والإنكار للدين. وكم رأيت ممن يضل عن الحق بهذا العذر ولا مستند له سواه! وإذا قيل له: الحاذق في صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقاً في كل صناعة، فلا يلزم أن يكون الحاذق في الفقه والكلام حاذقاً في الطب، ولا أن يكون الجاهل بالعقليات جاهلاً بالنحو، بل لكل صناعة أهل بلغوا فيها رتبة البراعة والسبق. وإن كان الحمق والجهل قد يلزمهم في غيرها. فكلام الأوائل في الرياضيات برهاني، وفي الإلهيات تخميني ؛ لا يعرف ذلك إلا من جرّبه وخاض فيه.فهذا إذا قرر على هذا الذي ألحَدَ بالتقليد، لم يقع منه موقع القبول، بل تحمله غلبة الهوى، والشهوة الباطلة، وحب التكايس، على أن يصر على تحسين الظن بهم في العلوم كلها. فهذه آفة عظيمة لأجلها يجب زجر كل من يخوض في تلك العلوم، فأنها وإن لم تتعلق بأمر الدين، ولكن لما كانت من مبادئ علومهم، سرى إليه شرهم وشؤمهم، فقل من يخوض فيها إلا وينخلع من الدين وينحل عن رأسه لجام التقوى.

الآفة الثانية: نشأت من صديق للإسلام جاهل، ظن أن الدين ينبغي أن ينصر بإنكار كل علم منسوب إليهم: فأنكر جميع علومهم وادعى جهلهم فيها، حتى أنكر قولهم في الكسوف والخسوف، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع. فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع، لم يشك في برهانه، ولكن اعتقد أن الإسلام مبني على الجهل وإنكار البرهان القاطع، فيزداد للفلسفة حبّاً وللإسلام بغضاً. ولقد عظم على الدين جناية من ظن أن الإسلام ينصر بإنكار هذه العلوم، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي والإثبات، ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الدينية. وأما المنطقيات: فلا يتعلق شيء منها بالدين نفياً وإثباتاً، بل هي النظر في طرق الأدلة والمقاييس وشروط مقدمات البرهان وكيفية تركيبها، وشروط الحد الصحيح وكيفية ترتيبه، وربما ينظر في المنطق أيضاً من يستحسنه ويراه

واضحاً، فيظن أن ما ينقل عنهم من الكفريات مؤيد بمثل تلك البراهين، فاستعجل بالكفر قبل الانتهاء إلى العلوم الإلهية. وأما (علم) الطبيعيات: فهو بحث عن عالم السماوات وكواكبها وما تحتها من الأجسام المفردة: كالماء والهواء والتراب والنار، وعن الأجسام المركبة: كالحيوان والنبات والمعادن، وعن أسباب تغيرها واستحالتها وامتزاجها. وذلك يضاهي بحث الطب عن جسم الإنسان وأعضائه الرئيسة والخادمة، وأسباب استحالة مزاجه. وكما ليس من شرط الدين إنكار علم الطب، فليس من شرطه أيضاً إنكار ذلك العلم، إلا في مسائل معينة.

التأمل المتأني في هذا الخطاب يذكرنا بما عرفته وتعرفه بعض المجتمعات الإسلامية من تحريم البعض للعلوم غير الشرعية كما أسموها وفتنة انسحاب طلبة متفوقين من تخصصات استراتيجية للانضمام للكليات الدينية خشية جهنم.

توفي أبو حامد عام 1111م وكان قد شغل مركزا علميا وسياسيا مفتاحيا، وقبل هذا ومع ما يلاحظ من ارتباك في آرائه كيف يمكن رسم صورة حقيقية لعمق أفكاره؟وأي الكتابات كانت قبل أزمته وأيها كانت بعدها ؟ولماذا اختار البعض هذه الأفكار دون الأخرى للتشبث بها.الربط بين المصدر الأساسي للدين وعلوم الدنيا ليست بدعة إسلامية، ومن الأمثلة على ذلك ما يقوله أتباع الطاوية من أن كتابهم المقدس يحوي كل علوم الدنيا،وسلم الهندوس أن كتبهم المقدسة تحتوي على أسرار خارقة لها علاقة بكل ما يحيط الإنسان والكون، وكان المفسرون الرسميون للكتب المقدسة في كل الأديان يحظون بمكانة خاصة بدعوى معرفتهم للأسرار الخفية للكتب المقدسة،واليوم أيضا هناك مباحث عن الإعجاز العلمي والتفسير العلمي في منظومات دينية مختلفة.يقول وحيد الدين خان:

هي نفس الطريقة التي تتبعها شعوب الحضارات المقهورة تجاه الحضارات القاهرة وأية نظرية تقدم على هذا النحو يمكنها أن تكون تابعة ولكنها لا يمكن أن تكون

رائدة ولو خيل إلى أحدنا أنه يستطيع أن يغير مجال الفكر في العالم بمثل هذه المحاولات التوفيقية ليشرق على البشرية نور الحق فهو هائم ولاشك في عالم خيالي لا يمت إلى الحقائق بسبب،فان تغيير الأفكار والمعتقدات لا يأتي من طريق التلفيق بل عن طريق الثورة الفكرية[1]

يستقرأ مهدي كلشني الواقع الفكري الغربي فيلاحظ:

لم يكن موضوع العلم الديني مطروحا في العالم الإسلامي وحسب بل إن العالم المسيحي شهد اهتماما شديدا بهذا الموضوع خلال الأعوام الماضية، وقد نظمت في هذا الشأن مؤتمرات وأصبح اصطلاحtheistic science أي العلم الديني متداولا في الأوساط الثقافية الغربية.[2]

نقرأ في المراجع المختلفة أن الفضل المرسي ذكر أن أصول الصنائع مذكورة في القرآن كالخياطة : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ ﴾[الأعراف/22]، والحدادة ﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ﴾[الكهف/96] ، والبناء ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ ﴾[البقرة/127]، والنجارة : ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[هود/37]، والغزل والملاحة والفخارة.

هل من الصدفة أن نجد على سبيل المثال بحوثا في المراجع المسيحية ينطلق أصحابها من كون مجال العلم هو البعد المادي للوجود والإنسان بينما الكتاب المقدس يسمح بفهم قوانين وتطور العالم المحيط بنا.

واجتهد قس من كنيسة مسيحية افريقية في قراءة كتابه المقدس بنفس منهج الفضل المرسي رغم البعد الزمني والمكاني بينهما وليس هناك ما يوحي أن هذا قرأ

(1) وحيد الدين خان الإسلام يتحدى مدخل علمي إلى الإيمان تعريب ظفر الإسلام خان مراجعة عبد الصبور شاهين القاهرة مكتبة الرسالة 1974 ص7.

(2) مهدي كلشني: من العلم العلماني إلى العلم الديني ترجمة سرمد الطائي مراجعة صادق العبادي مركز دراسات فلسفة الدين وعلم الكلام الجديد بالتعاون مع دار الهادي للطباعة والنشر ط1 بيروت 1424/2003. ص149.

لذاك.إذ يرى القس أن العلم له رمزيا الأيام الستة والكتاب المقدس له رمزيا اليوم السابع وأن هناك بوادر علم الاتصالات والنقل من خلال قصة سفينة النبي نوح وهناك ما يتصل بعلم الصيدلة وعلم الزراعة والكتابة وعلم التربية والتعليم و العلوم السياسية والعلوم الإدارية والقانونية وحتى تصميم الملابس والهندسة المعمارية وغيرها من خلال مختلف آيات الكتاب المقدس .[1]

تفسير الكتب المقدسة علميا واستخراج ما يرى أنه معجز واقع يزداد وضوحا مع الحرب الضروس بين الإلحاد بأنواعه القديمة والجديدة والمتدينين من أجل استخدام الكشوفات والفتوحات العلمية في هذا الاتجاه أو ذاك.تخصص بعض المجلات العامة والمتخصصة مواضيع حول علاقة الدين بالعلم من خلال مثلا إحصائيات حول الموقف من الدين في الدوائر العلمية وحاملي نوبل مع الإشارة إلى أن السؤال يعني الموقف من وجود اله للكون وكيف يعطي الإنسان معنى لحياته؟ وتكون الإجابات من التنوع الذي يجب على العاملين في حقل الأديان والدعوة التوقف عنده مليا.كما يتابع المهتمون أيضا النقاشات على المواقع الالكترونية الجادة التي تنشر موادا علمية مقاربة للموضوع أو حتى متابعة تعليقات القراء على تقارير الكتب الهامة حول الموضوع.مهدي كلشني لاحظ تزايد عدد الملتقيات العالمية التي تصب في نفس الاتجاه ووضع جداول لبعضها تشمل مكان وزمان انعقادها:

في يوليو 1986 نظم بالهند المؤتمر العالمي للتوفيق بين العلم والدين شارك فيه أكثر من 1100 شخصية من علماء الفيزياء والكيمياء والأحياء إضافة إلى الفلاسفة وعلماء اللاهوت وغيرهم من كافة أنحاء العالم، وفي جامعة كمبريدج منذ

(1) Jacques–Daniel ROCHAT: Aide. lire et étudier la BIBLE .ed entraid. suisse, Relation entre religion biblique et science: point de vue d'un théologien kimbanguiste.

عدة أعوام افتتح قسم لقضايا العلم واللاهوت [1]

وفي 1998 حصلت جامعة اكسفورد على مليون ومائة إلف جنيه لتأسيس كرسي لشؤون العلم والدين،كما أطلقت جامعة ليدز في بريطانيا أول مركز شبه تخصصي للبحث حول طبيعة العلاقة بين العلم والدين،ومنذ أكتوبر1998 افتتحت الجامعة ذاتها قسما للدراسات العليا في هذا المجال كما بادرت جامعة بوسطن بأمريكا إلى افتتاح قسم مشابه في مجال العلم والدين والفلسفة، وافتتحت الجمعية الأمريكية للعلوم السياسية قسم الدين والسياسة وأدرجته ضمن مجالاتها البحثية.

في العقود الأخيرة لوحظ في أوربا وأمريكا وبشكل متزايد تأسيس المؤسسات والمراكز البحثية التي تعالج إشكالية العلاقة بين العلم والدين كما افتتحت أقسام في المجال ذاته خلال الأعوام الأخيرة في عدد من جامعات أوربا وأمريكا وحسب مجلة new scientist هي أكثر الأقسام العلمية تناميا في الجامعات تلك.[2]

وهذا لا يعني عدم وجود مقاومة لهذا المنحى:فهناك فلاسفة و علماء يعارضون حتى الآن افتتاح أقسام الدين في الجامعات لأن مصدر تمويل الجامعات هو الضرائب التي يدفعها المواطنون.[3]

استقصاء الآراء من مصادرها وتحليل المعطيات عمل متواصل يسمح بقياس الاتجاهات الكبرى للفكر البشري وقادته العلميين خصوصا:

مجلة nature في عدد386 لأفريل 1977 نظمت استفتاء شمل ألفا من العلماء ومن بين ستمائة عالم شاركوا في الاستفتاء كان 40% يقرون بإيمانهم بالله، وشكل علماء الفيزياء النسبة الأقل بين المؤمنين والأعلى في نسبة المؤمنين كانت

(1) مهدي كلشني:من العلم ....م،م،س. ص74.
(2) م،ن،ص 75.
(3) م،ن.ص78.

عند علماء الرياضيات.[1]

ومن التحقيقات الموجودة اليوم على المواقع الرسمية للجهات المتخصصة ما نجده عن الإحصائيات النسبية التي تشير مثلا أن:

التقارير حول الكتب بينت أن كتابا عن الأديان والتقدم صادر عام 1998 أنجزه كل من Xavier couplet وdaniel heuchenne ومن نتائجه حسب الفقرات المأخوذة مباشرة من الكتاب أن:في المعدل العام يهودي واحد وكنفوشيوسي واحد أو بروتستانتي واحد ينتج في المجالات العلمية المختلفة ثلاث مرات أكثر من كاثوليكي واحد وأكثر من أربع عشرة مرة من مسلم، ومن 20 إلى 30 مرة أكثر من بوذي أو أتباع الديانات الروحية أو هندوسي، وأن الديانة الأكثر توفرا على العوامل الايجابية للتطور هي البروتستانتية، والديانة التي تحمل أكثر العوامل تأثيرا سلبيا على التطور هي الديانات الروحية الانيمبزم[2].

العلم ساحة لمعارك حقيقية بين الإيمان والكفر يقودها أناس اعتقدوا أنها مسألة حياة أو موت، وقد تأخذ هذه المعارك أشكالا غريبة كأن يرسل هارون يحي التركي أطلسه بطريقة طوفانية للمدارس في أوربا، وكأن يأمر القضاء التركي عام 2008 بحجب موقع العالم الملحد الشهير Richard dawkins والذي بدوره ينضم لحافلة في بريطانيا تجول الشوارع لتشجيع الناس على التعبير عن إلحادهم.

الايديولوجيا والعلم

سيطرت الكنيسة المتحالفة - وأحيانا المسيطرة – مع القصر على البحث العلمي في المجتمعات الغربية وفرضت منطقها الخاص في اتجاهات مصلحة ذلك

(1) م،ن.ص76.

(2) www.sciences humaines.com شهر نوفمبر 1999 العدد99 في الصفحة الخاصة بتقارير الكتب عن كتاب عن الأديان والتقدم أنجزه.Xavier couplet et daniel heuchenne.

التحالف وكان العلماء والمفكرون يحتاجون لرعاية أمير أو ملك، فديكارت كان في رعاية أمراء، ومارتن لوثر وجد الحماية عند الأمير فريدريك الثالث في قلعة فيتبرغ، وفي الحضارة الإسلامية لم تكن الأمور بعيدة كلية عن هذا التحدي ولكن هناك من يرى أن ذلك كان سلبيا:الارتباط بالحكام أضفى على العلماء الشهرة المهنية والمكانة الاجتماعية الرفيعة، وإبعاد مضايقات المتطرفين لكن كانت تلك الرعاية من أخطر نقاط الضعف في تشكيل العلم الإسلامي، حيث تدخلت الميول الخاصة للرعاة وحظ ومستقبل السلالة الحاكمة حينها، ومكائد حياة البلاط فعلى أساس كل ذلك تحددت توجهات تنمية التعليم ومصائر العلماء[1].

ابن خلدون رجل الدولة والمفكر والمؤرخ كتب عن العلوم عند المسلمين وصنفها في الفصل الرابع والعشرين من مقدمته وفي الطبيعيات يكاد ابن خلدون يغلق أبواب الاجتهاد فيها وكأن العالم استوفى منها كل أسرارها:

وألف الناس في ذلك كثيرا لكن هذه هي المشهورة لهذا العهد والمعتبرة في الصناعة،ولأهل المشرق عناية بكتاب الإشارات لابن سينا وللأمام ابن الخطيب عليه شرح حسن، وكذا الآمدي وشرحه أيضا نصير الدين الطوسي المعروف بخواجة من أهل المشرق، وبحث مع الإمام في كثير من مسائله فأوفى على أنظاره وبحوثه وفوق كل ذي علم عليم.

العلاقة بين مراكز الحكم بوجوهها السياسية والعلمية واتجاهات المعرفة مسألة حيوية في تتبع نشأة وتطور أنواع العلوم، وقراءة الشواهد السابقة دون ربطها بالخريطة السياسية قراءة مشوشة لا تساعد في الوصول إلى استنتاجات موضوعية. نبه الكواكبي في الأزمنة الحديثة أن المستبد يفضل تشجيع العلوم التي لا تدفع كثيرا

(1) برويز أمير علي بهائي بيود:الإسلام والعلم:الأصولية الدينية ومعركة العقلانية تر محمود خيال تصدير محمد عبد السلام جائزة نوبل الفيزياء المجلس الأعلى للثقافة 1991 القاهرة ص203.

للتفكير كالدراسات اللغوية:

المستبد لا يخشى علوم اللغة تلك العلوم التي بعضها يقوم اللسان وأكثرها هزل وهذيان يضيع به الزمن[1] كذلك لا يخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد المختصة ما بين الإنسان وربه[2].

إذا كان الله أودع في الناس الفطرة السليمة بالعدل فان منحنيات انحرافها تتقاطع أيضا نوقد يصل التدخل في البحث العلمي إلى حد التشويه كما يذكر المؤرخون من مشارب عدة مثل: نموذج ليسينكو وما فعله في علم البيولوجيا الاشتراكي أيام حكم ستالين فقد كان ليسنكو رجلا ريفيّا يعمل في الزراعة ويناهض علماء الوراثة وأدخل مفردات الصراع الطبقي في المجال العلمي واستبعد العلماء المتخصصين بدعوى انتماءاتهم الطبقية المعادية للثورة،وامتدت سيطرة هؤلاء على مقاليد العلم و لم يسلم منهم حتى العلماء ذوي الميول الاشتراكية مثل فافيلوف العالم المتخصص في الوراثة في النباتات لكنهم أعدموه بتهمة تخريب الزراعة،وقدمت نظريات بديلة تستقي عناصرها من الصراع الطبقي كادعاءات ليسينكو[3] بأن النباتات التي تنتمي إلى نفس النوع تظهر نوعا من تكاتف اشتراكي فهي لا تتنافس مع بعضها من اجل البقاء وان زراعة نفس النوع من الأشجار بالقرب من بعضها يساعد على نموها.وطال هذا التدخل السافر ميدان الفيزياء أيضا[4] حيث أن فلاسفة الحزب الستاليني خافوا من احتمال امتداد اللايقين الكامن في قلب ميكانيكا الكم إلى عالم السياسة ومن ثم تتعارض مع نظرية حتمية تطور المجتمعات التي طرحها كارل ماركس وكان التخوف واضح من تأثير النظرية النسبية لأينشتاين على عالم

(1) الكواكبي في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد تقديم أسعد السحمراني دار النفائس بيروت ط3 2006 ص65.
(2) م،ن. ص66.
(3) الإسلام والعلم:الأصولية م،م،س.ص179.
(4) م،ن.ص180.

السياسة.[1]

العلم حتى في أدق خصوصياته والتي تبدو أقرب إلى الإجماع الإنساني قد يسقط في التشويه و هاهو نموذج آخر من الضفة الأخرى يبين أن قاعدة الغاية تبرر الوسيلة قد تأخذ أسوأ الصور أيضا:في أمريكا قبل عدة أعوام طرح مشروع لصناعة جهاز ضخم مزود بسرعة عالية لاكتشاف بعض أجزاء الذرة على أساس أن الجهاز هذا سيتمكن من تحديد الأجزاء التي خمنتها بعض نظريات الفيزياء،وكانت كلفة المشروع 13 مليار دولار، فبادر Leon LEADERMAN وهو أحد علماء الفيزياء الأمريكان بتأليف كتاب اختار له عنوان: THE GOD particleحيث سعى إلى أن يوحي عبر ذلك لدافعي الضرائب في أمريكا بأن اكتشاف الجسيمات المذكورة سيمثل سبيلا إلى الله[2].

العلم إذن نشاط إنساني يخضع لكل المؤثرات التي تحيط بأي نشاط إنساني فتتقاطع عنده تيارات وتفاعلات تحدد مساره.التفسير العلمي هو قراءة لآيات القرآن رسالة الله الخالق للبشر جميعا يقرأه من يعرف قدره متوضئا خاشعا باحثا فيه عن الطريق إلى أحسن مقامات الجنة وآمن السبل لتحقيق رسالة استخلاف الإنسان.التفسير العلمي والإعجاز العلمي ليسا إشكالية حقيقية في أزمنة الهزيمة ولكنهما مؤشرات أزمة عميقة في فهم الرسالة المكتوبة والرسالة المرئية.بحث البعض عن ترسيخ شرعية التفسير العلمي من خلال:

الاعتماد على طرق ثلاث:حصر الأدلة للاستدلال بها،وثانيا الرجوع إلى العلماء السابقين، وثالثا الجانب التطبيقي بتفسير الآيات على ضوء العلوم الحديثة.

أدلة القرآن: الانعام38 / النحل89. القصص49-50/ فصلت 53/ محمد24

(1) م،ن.ص 181.

(2) مهدي كلشني: من العلم ....م،م،س .ص74.

/ النساء82.

ومن أدلة الحديث التي يوردونها: ما أخرجه الترمذي بأن رسول اللهﷺ قال:(**وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ**.)

أخرجه أحمد في مسنده، ج197/1، رقم الحديث: 704. - وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب فضائل القرآن 46،باب ما جاء في فضل القرآن ورقم الحديث. 2906

حيث استدلوا بعموم الحديث.إذ وجدوا فيه إشارة إلى شمولية القرآن الكريم، وفي هذه الشمولية يدخل الإخبار عن العلوم الحديثة.

وكذلك عموم(قوله ﷺ: **إن الله لو أغفل شيئاً لأغفل الذرة والخردلة والبعوضة تخريج الحديث**)حديث مرفوع (حَدَّثَنَا ابْنُ الطِّهْرَانِيِّ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ حَيَّانَ بْنِ وَاقِدٍ الثَّقَفِيُّ، حَدَّثَنَا سَلْمُ بْنُ سَلامٍ، حَدَّثَنَا أَبُو أُمَيَّةَ بْنُ يَعْلَى، عَنْ سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ[1]

انتقاء أحاديث للرسول ﷺفي دعم قراءة خاصة لآيات القرآن يحتاج إلى تأنٍ في تفكيك مآلاته ويقرأه علميا المتبحرون في علوم الحديث، ولكن ما يخص العلوم فذلك عالم آخر لا يفتي فيه إلا أهله أيضا والحلقة بين الطرفين هي باب الأخلاق والحياء واستحضار الله في كل حركة وعدم مقايضة الآيات بثمن قليل.أنصار التفسير العلمي والإعجاز العلمي يؤيدون منحاهم بأن ذلك يؤدي إلى:

- استمالة غير المسلمين.

(1) علي اسعد في رسالته للدكتوراه.

- رد مزاعم القائلين بأن هناك تعارضاً بين الدين والعلم.

- الحث على الانتفاع بقوى الكون.

- تمتلئ النفس رهبة وإيماناً بعظمة الله وقدرته.

- إثبات أن القرآن موحى به من عند الله تعالى، وذلك بإظهار ترقي العلم للحقيقة القرآنية[1]. علي اسعد.

الملاحظة أن هذه الأهداف تنطبق على أي كتاب يريد أصحابه إبراز علة تقديسه، وقد فعلها بعض أتباع الكتب المقدسة وفق منهجية أقرب إلى لي أعناق الكلمات والحروف. في المنظومة الإسلامية الوعي بضرورة التحرر بالقرآن من التبعية مرتبك و لم يحقق لا التجاوز ولا اللحاق وهذا ما يستشف من موقف مدرسة المنار والذي اختلف الباحثون في تصنيفها بين المؤيدين للتفسير والإعجاز العلميين أو الرافضين خصوصا مع اختلاف توجهات الشيخ رشيد رضا بعد وفاة شيخه.يرى أحد كتاب المنار أن زمنا مر على المسلمين كانوا يستعينون فيه على تفسير القرآن بأفكار أرسطو وأفلاطون وبقراط وفيثاغورس وجالينوس وبيدباي من فحول اليونان والهنود وغيرهم، أما نحن الآن ففي وقت لا يكفينا فيه رأي الأقدمين وحدهم فقد استدار الزمان وحدثت حوادث وظهرت أقضية وأمور جديدة تستوجب البحث فيما قاله أهل هذا الوقت مثل:ليبنتز واوجست كونت وسبنسر من كبار الألمان والفرنسيس والانجليز وغيرهم[2].

واضح أن حركة المسلمين هي دائما في التبعية وليس هناك إنتاج علمي مواز أو

(1) علي أسعد أطروحة دكتوراه: تطبيقات الإعجاز العلمي: رؤية نقدية من كلية الشريعة جامعة دمشق عن الإعجاز العلمي للقرآن الكريم والدراسة منشور أجزاء هامة منها في إسلام أون لاين سنة2004 وأعيد نشرها في: http://www.onislam.net/arabic/madarik/science-environment/90139-2005-07-19%2014-20-22.html.وينظر أيضا:هند شلبي:التفسير العلمي بين النظريات والتطبيق تونس1985/1406 ص43.

(2) المكتبة الشاملة: مجلة المنار المجلد14 ج7 ص517عنوان الصفحة: الاستعانة بالعلوم الجديدة على التفسير إمضاء محمود سالم.

لاحق والعمل مع هذا التشويش في تلقي كل عناصر المعضلة يؤدي إلى تشخيص مرتبك في غالب الأحيان، فالعلم حركة حيوية لا يستوعب سرعتها عقل تلفيقي وهو ما ألمح إليه أحمد الشرباصي: مدرسة تفسير المنار جعلت من أهدافها التوفيق بين الدين والعقل أصابها طائف من المبالغة، حيث أسرفت أحيانا في الخضوع للعقل، وهو أمام الغيب قاصر مهما كانت قوته وأسرفت أحيانا في الحذر والاحتراس من تقبّل الغيبيات والتسليم بها، وإذا كان الناس قد حمدوا لها تحديد نطاق الخوارق والغيبيات في تفسير القرآن الكريم والتوفيق بين كلام الله وسنته الكونية المألوفة ومقاومتها طوفان الخرافات والإسرائيليات والأساطير التي تسربت إلى رحاب التفسير، واستعانتها بمقررات العلم الحديث في إقناع أهله بالدين وتعاليمه فإنهم قد فزعوا حين رأوا الأمر قد زاد عن حدّه، فكاد ينقلب إلى ضده، ومن أمثلة المبالغة في تحكيم العقل في تفسير المنار ذكره أن الملائكة هي القوى والأفكار الموجودة في النفوس، وان المراد بسجود الملائكة لآدم هو تسخير القوى للإنسان في هذه الحياة، وأن قصة آدم بما فيها من محاورة الملائكة، وتعليمه الأسماء وسجود الملائكة له، هي من باب التمثيل لا أنها وقعت بالفعل[1].

الاهتزازات التي تصيب التفكير الإسلامي في القضايا الكبرى في ظل وقع شديد وسريع للتحديات يجب استحضارها عند القراءة والتحليل واختيار كل هذه الوقائع هو محاولة بسط أهم عناصر المشكلة التي تتشعب وتتورم أحيانا بفعل الاتجاهات في واقع المسلمين والتي تؤشر أغلبها إلى غربة واضحة بين المسلم ورسالته.حاول وحيد الدين خان أن يضع لنفسه معالم دقيقة منهجية وعلمية في انضمامه لهذه المعركة العقدية فيشرح مسلك كتابه:الإسلام يتحدى والذي يجب إلحاق توأمه لفهم جدي لمنهج وحيد الدين خان: إن الطريقة التي يتبعها الكتاب للدفاع عن الدين ذات

(1) في: مقال نادر للدكتور أحمد الشرباصي حول تفسير المنار لرشيد رضا نشر عام 1970 في مجلة الوعي الإسلامي بعنوان: العقل في تفسير المنار.

وجهين،فكرية وتجريبية وبعبارة أخرى:فلسفية وعلمية وقد راعى المؤلف الطريقة الثانية وهي التجريبية أو العلمية والسبب في ذلك أن مكتبتنا تزخر بمجلدات ضخمة من الكتب التي وضعت على المنهج الأول على حين يوجد نقص شديد في الكتب من المنهج الثاني، وإنني لأشعر بأن المضمار الفسيح الذي هيأته الدراسات العلمية الحديثة لإثبات الدين هو تصديق لما جاء في القرآن في سورة النمل:وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وهذا الكتاب محاولة لاستغلال الإمكانات الجديدة لصالح الدين بطريقة منظمة[1].

الربط بين القرآن و المعارف البشرية يضع المؤمن في حيرة في المنطلق وفي المآل،وهو ما يستشف في قول وحيد الدين خان:إن هناك أشياء كثيرة كان الأقدمون يعرفون عنها بعض المعارف الجزئية، وكانت معرفتهم هذه ناقصة جدا بالنسبة إلى المعرفة التي أتيحت للإنسان اليوم بفضل الاختراعات الحديثة،وقد واجه القرآن في هذا الصدد مشكلة كبرى فهو لم يكن كتابا في العلوم[2].

وحيد الدين خان ابن منطقة عرفت تحديا خاصا مع جامعة عليكرة وفلسفة أحمد خان، ولكن أيضا بالتجديد الذي نادى به محمد إقبال وجهود آل الندوي، وهنا نحن أمام عقل مؤمن يحاول الإجابة على أسئلة محرجة يفرضها اصطدام عنيف بأهوال الهزيمة التي يتلقى لهيبها مسلم حي يعيش يوميا تحديات الموت الحضاري، ولذلك عليه متابعة ما يفعله شركاؤه أو منافسوه في العالم بإمعان وهو ما يستشف من ملاحظة وحيد الدين خان الذي يستحضر:تجربة قس أمريكي مع شباب صينيين اختار أن يدعوهم للمسيحية من خلال مقارنة ما جاء في سفر التكوين وما تقوله العلوم الحديث[3]

(1) وحيد الدين خان:الإسلام يتحدى م،م،س.ص6.

(2) م ن.ص188.

(3) م،ن. ص183ملاحظة أخطأ وحيد الدين خان في نسبة سفر التكوين للإنجيل.

تلمع كلمات وحيد الدين خان حكمة وعدلا عندما يقدم الملاحظة الهامة جدا:إننا نؤمن بأن الإنجيل والتوراة من الكتب الإلهية مثل القرآن الكريم،ولذلك توجد فيهما قبسات من العلم الإلهي[1].

هذا المخرج المتوازن أمام عقبة كأداء في معركة الوجودي العلمي والإيماني لا يخفي معالم أزمة عميقة يعترف بها وحيد الدين:

إن المحور الحقيقي لرسالة القرآن هو السعادة الأخروية، فهو بذلك لا يدخل في دائرة أي من علومنا وفنوننا الحديثة، ولكن حيث إنه يخاطب الإنسان في حقيقة الأمر فهو يمس كل ما هو متعلق بالإنسان، وهي مسألة دقيقة وموقف جد خطير[2].

هي ذي الاشكالية الحقيقية في هذا الحقل من اجتهاد المسلمين، والتي تتضح معالمها أكثر بالاعتراف بنسبية وآنية التفسير العلم:

إن مطابقة كلمات القرآن وألفاظه للكشوف الحديثة مبنية على أن العلم الحديث قد استطاع الكشف عن أسرار الواقعة موضوع البحث فتوفرت لدينا مواد نافعة لتفسير الإشارات القرآنية في ذلك الموضوع، ولو أن دراسة المستقبل في موضوع ما تبطل واقعة من وقائع العلم الحديث كليا أو جزئيا فليس هذا بضائر مطلقا صدق القرآن، بل معناه أن المفسر أخطأ في محاولته لتفسير إشارة مجملة في القرآن،وإنني لعلى يقين راسخ بأن الكشوف المقبلة سوف تكون أكثر إيضاحا لإشارات القرآن، وأكثر بيانا لمعانيه الكامنة[3].

اليقين هو المعركة الحقيقية للمؤمن هو نجاته وسعادته،ورغم أن وحيد الدين خان

(1) م،ن.ص.185.
(2) م،ن.ص187.
(3) م ،ن .ص187 وص188.

اعتبر التفسير العلمي سلاحا هاما في مجال العقائد خصوصا إلا أنه صارم عند الاعتراف بأن:القرآن لم يكن كتابا في العلوم والهندسة،ولذلك لو أنه كان بدا يكشف عن أسرار الطبيعة لاختلف الناس فيما بينهم حول ما جاء في القرآن، ولاستحال عندئذ بلوغ الهدف الحقيقي من نزول القرآن وهو أصلح العقل الإنساني وتزكيته.. ومن إعجاز القرآن أنه تكلم في لغة العلم قبل كشفه كما أنه استعمل كلمات وتعبيرات لم تستوحشها أذواق الأقدمين ولا معارفهم على حين أحاطت بكشوف العصر الحديث[1].

القراءة المتأنية لكتابي وحيد الدين خان تحمل الكثير من الصدق،ولكن أيضا بعض التناقض والارتباك والتأرجح وهو أمر مفهوم في مثل هذه المعارك التي يخوضها العقل المسلم وهو محمل بآثار هزائم أنهكته، ويريد محو ذكراها والأهم محو آثارها العميقة.يستحضر وحيد الدين خان مقولة لشبلي النعماني مهمة للغاية ويمكن اعتبارها جزيرة آمنة وسط تلاطم هذه الأمواج أو واحة وسط سراب قاتل للرمال المتحركة:مهما قيل فإن روح الدين هي عقيدة المعاد فان كل ما يتمتع به الدين من تأثير وكل ما للدين من أثر على أفعال الإنسان يرجع إلى قوة هذه العقيدة وبقدر ما هي عظيمة الشأن بقدر ما هي عسيرة التصور[2].

في جغرافيا أخرى من العالم الإسلامي وفي نفس المعركة رأى الشيخ عبد الله دراز أن القرآن يحتوي على ما يتطابق مع الكشوفات العلمية:

القرآن في دعوته إلى الإيمان والفضيلة لا يسوق الدروس من التعاليم الدينية والأحداث الجارية وحدها،وإنما يستخدم في هذا الشأن الحقائق الكونية الدائمة،ويدعو عقولنا إلى تأمل قوانينها الثابتة لا بغرض دراستها وفهمها في ذاتها

(1) م،ن.ص188.

(2) وحيد الدين خان:الدين في مواجهة العلم تر ظفر الإسلام خان مراجعة عبد الحليم عويس دار النفائس بيروت ط4 /1987 ص52.

فحسب وإنما لأنها تذكر بالخالق الحكيم القدير[1] ونلاحظ أن هذه الحقائق التي يقدمها تتفق تماما مع آخر ما توصل إليه العلم الحديث مثل المنبع الخفي الذي يخرج من العنصر الجنسي للإنسان[2].

مقدمة جملة الشيخ دراز لا يختلف عليها أي مسلم ولكن عبارة 'تتفق تماما' هي أقرب إلى اللغة الأدبية،لأن لغة العلم البشري النسبية ولغة القرآن الإلهية اليقينية المطلقة لا مجال لتطابقهما،وهذا لم يغب عن الشيخ عندما يستدرك:

الحماس دفع بعض المفسرين المحدثين إلى المبالغة في استخدام هذه الطريقة التوفيقية لصالح القرآن بحيث أصبحت خطرا على الإيمان ذاته،لأنها إما تقلل من الاعتماد على معنى النص باستنطاقه ما لا تحتمله ألفاظه و جمله ،و إما أن تعول أكثر مما يجب على آراء العلماء وحتى على افتراضاتهم المتناقضة أو التي يصعب التحقق من صحتها[3].

مرة أخرى نحن أمام عينة من الارتباك أمام تحدي كبير للعقل المسلم،ولذلك لابد من القراءة الشاملة لمن ناقشوا الإشكالية، لأن أفكارهم معروضة في مواقع عديدة،وأحيانا تبدو متناقضة بل هي دالة بتناقضها الظاهر على البحث المستمر للخروج الآمن من أزمة المسلم مع الأمانة.

تفسير الجواهر للشيخ طنطاوي جوهري المعركة الكبرى

يعد كتاب الجواهر للشيخ طنطاوي جوهري معلما هاما والطبعة الالكترونية للكتاب بالأبيض والأسود تبين العناء الذي تكبده الشيخ لإنجاز مشروعه، وإذا كانت بعض المعادلات وصور أعضاء الإنسان والحشرات والنباتات وبعض الظواهر

(1) في: مدخل إلى القرآن الكريم ترجمة محمد عبد العظيم عسلي مراجعة السيد محمد بدوي دار القلم 1984/1404 ص175.
(2) م،ن. ص176.
(3) م،ن ص ص176 و ص177.

الكونية تبدو غريبة أمام ثورة التصوير اليوم فان قراءتها في سياقها الزمني والحضاري تبين مقدار الألم الذي حرك هذا الشيخ وهو يرى أن الغرب يستعمر الأمة الإسلامية بسلاحه وعلمه وثقافته،وأن المسلمين مستسلمون، وهم وصمة عار على كتابهم المبين، واستحضار الشيخ لرؤاه وأحلامه ومناجاته لله عنصر هام لفهم مساره وتخبطه خصوصا بحديثه عن استحضار الأرواح والتنويم المغناطيسي.

ولد طنطاوي جوهري بقرية مصرية عام 1862م وتلقّى تعليمه في الأزهر.

وفي مدرسة «دار العلوم» حيث درس مبادئ المواد الحديثة التي لم تكن مقررةً في الدراسات الأزهرية: كالحساب والهندسة والجبر والفلك وعلم النبات والطبيعة والكيمياء. فالشيخ نهل من المؤسسة التقليدية والمؤسسة الحديثة. وعُيِّنَ سنة 1911م مدرساً للتفسير والحديث بمدرسة دار العلوم، وبالجامعة المصرية حين إنشائها حيث درس الفلسفة وعندما تقاعد انقطع للتأليف وألف حوالي ثلاثين كتابا توجها بتفسير الجواهر، وورد في «صحيفة دار العلوم»: أن التركستانيين لما استقلوا وأنشأوا المدارس والجامعات أسموها باسم الشيخ طنطاوي جوهري؛ فسموها «جامعة طنطاوية» و«مدارس جوهرية»، وقد ترجم تفسير الجواهر إلى اللغة الأوردية، وأخبر علماء «إيران» أن الكتاب يدرسه العلماء لجميع الطلاب، وأن طلاب العلوم الحديثة في مدارس «إيران» يقرؤون هذا التفسير، وبه وحده زالت عنهم الشكوك والوساوس في الدين، كما أن علماء الوعظ يخطبون به على المنابر هناك. وانتشر هذا التفسير انتشاراً عاماً في «السودان» و«شمالي إفريقيا» وبلاد «جاوة». وأقبل أهل «الهند» على هذا التفسير إقبالاً عظيماً[1].

شخصية حية باحثة ومجتهدة في فراغ من الانجازات العلمية للمسلمين وخريطة

(1)محمد بلاسي: حول التفسير العلمي الجواهر للجوهري: مجلة الداعي الشهرية الصادرة دار العلوم ديوبند ربيع الأول 1432ه فبراير 2011 العدد3 السنة35.

تلقي وانتشار تفسير الشيخ جوهري طنطاوي لم يكن فقط بالترحيب فقد نبهت بنت الشاطىء:

وقدم الشيخ طنطاوي جوهري تفسيره (الجواهر) فوجدت فيه الجماهير ما يريحها من مهانة الإحساس الباهظ بالتخلف[1].

اختار الشيخ جوهري منهج تأليف تمثل في وضع الجوهرة بدل الباب أو الفصل ويتفرع عنها الماسات ويقول في مقدمة مشروعه ما يسمح باستكمال العناصر الضرورية لتحليل العينة:

إني خلقت مغرماً بالعجائب الكونية، معجباً بالبدائع الطبيعية، ثم إني لما تأملت الأمة الإسلامية، وتعاليمها الدينية؛ ألفيت أكثر العقلاء، وبعض أجلة العلماء، عن تلك المعاني معرضين، ؛ فأخذت أؤلف كتباً لذلك شتى، مزجت فيها الآيات القرآنية بالعجائب الكونية، وجعلت آيات الوحي مطابقة لعجائب الصنيع.. وتقبلها أجلة العلماء قبولاً حسناً، وترجم منها الكثير، لكن كل ذلك لم يشف مني الغليل ؛ فتوجهت إلى ذي العزة والجلال، أن يوفقني أن أفسر القرآن، وأجعل هذه العلوم في خلاله، فاستجاب الدعاء، وليكونن هذا الكتاب داعياً حثيثاً إلى درس العوالم العلوية والسفلية، وليقومن من هذه الأمة من يفوقون الفرنجة، في الزراعة، والطب، والمعادن، والحساب، والهندسة، والفلك، وغيرها من العلوم والصناعات؟! كيف لا، وفي القرآن من آيات العلوم ما يربو على سبعمائة وخمسين آية، فأما علم الفقه فلا تزيد آياته الصريحة عن مائة وخمسين آية.

لغة الشيخ متماشية مع عواطفه وإحساسه بواجبه،ولكن ضرورة التريث في التأمل تبدأ بقراءة بعض ما أضافه:

(1) في كتاب القرآن والتفسير العصري دار المعارف 1970 سلسلة اقرأ عدد335: ص39.

ولقد وضعت في هذا التفسير: ما يحتاجه المسلم من الأحكام والأخلاق، وعجائب الكون، وأثبت فيه غرائب العلوم وعجائب الخلق: مما يشوق المسلمين والمسلمات، إلى الوقوف على حقائق معاني الآيات البينات: في الحيوان والنبات والأرض والسموات. ولتعلمن أيها الفطن: أن هذا التفسير نفحة ربانية، وإشارة قدسية، وبشارة رمزية، أمرت به بطريق الإلهام، وأيقنت أن له شأناً سيعرفه الخلق، وسيكون من أهم أسباب رقي المستضعفين في الأرض.

الهالة التي يضفيها الشيخ جوهري على مجلداته ونسبته إلى الإلهام تقرأ بتحفظ، ولكن تقرأ أيضا باستحضار الحرقة التي ألهبت عقله وروحه والتي نستشفها من قوله:

إن قراءة التشريح والطبيعة والكيمياء وسائر العلوم العصرية ودراسة الحيوان والنبات والإنسان أجل عبادة ولولا قصور علماء القرون الماضية ما ضاع المسلمون وما أحاطت بهم عاديات الدهر، ولا أصابتهم كوارث الحدثان.

روح المخلص من التخلف والهوان التي تغلب على أجزاء كتابه تذكرنا بالمؤلفات القديمة ذات الصبغة النهائية: نهاية المرام/منتهى/بغية وغيرها. يضيف الشيخ: إنك تقرأ في هذا التفسير خلاصات من العلوم ودراساتها أفضل من دراسة علم الفرائض؛ لأنه فرض كفاية، فأما هذه فإنها للازدياد في معرفة الله وهي فرض عين على كل قادر إن هذه العلوم التي أدخلناها في تفسير القرآن هي التي أغفلها الجهلاء المغرورون من صغار الفقهاء في الإسلام؛ فهذا زمان الانقلاب، وظهور الحقائق، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم[1].

إنها حرب لا معركة وهي مفتوحة على عدة جبهات تعبر عنها لغة الأزمة وأزمة

(1) الجواهر في تفسير القرآن الكريم المشتمل على عجائب بدائع المكونات و غرائب بدائه الآيات الباهرات الشيخ طنطاوي جوهري مصطفى البابي الحلبي محرم 1341 هـ. الطبعة الالكترونية الجواهر ج3ص19.

اللغة، والباحث المحقق لابد أن يأخذ هذه المفردات بجدية ويحللها للوصول إلى استنتاجات موضوعية تصنف تلك المحاولات على أنها علامات حياة ومقاومة للموت أو الردة، وأنها أبقت شعلة الاجتهاد موقدة وإن أحرقت أجزاء من أرواح حية متحركة. يحلل أحميدة نيفر منهج الجواهر:

طريقة الشيخ في تفسيره هي أنه بعد مقدمة يحدد فيها غايته من التفسير يسرع في شرح الآيات شرحًا لفظيًّا لا يتجاوز فيه ما تتوافر عليه التفاسير القديمة المتداولة. ثم ينتقل بعد ذلك إلى ما سماه "اللطائف" و"الجواهر"، وهي استشهادات بمعارف علمية وتاريخية وفلسفية مطولة، يأتي بها مدعومة أحيانًا ببعض الصور التوضيحية وينقل بعض الأخبار عن الأناجيل وعن تاريخ العرب القديم، وعن الفلسفة اليونانية وإخوان الصفا، ويعتمد أحيانًا حساب الجُمّل القريب من التفسير الإشاري، ويستشهد بعالم الأرواح واستحضارها وبمسائل في علم التغذية وعلم الطب والكيمياء والجيولوجيا والفلك وعلم النبات مؤكدًا أن هذه العلوم التي أبرزها الله على أيدي الفرنجة ليست إلا علومًا مكنونة في النص القرآني[1].

الشيخ جوهري أجاب عن أسئلة الواقع الملحة بطريقته، اجتهد وفق رؤيته ؛ وقراءة آثار ذلك المنهج موضوعيا تضعه ضمن سياق فقدان العقل المسلم لتوازنه عند إدراكه إلى ما وصل إليه من خيانة لرسالته. يرى محمود عزب خريج السربون والمتخصص في حوار الأديان أن: تيار التفسير العلمي للقرآن عموما:

يستخدم المفردات والمصطلحات العلمية، نتائج البحث العلمي والإنجازات التقنية، ويضعها بين الآيات لشرح مفردات هذه بتلك، ويسمي العلوم المختلفة التي لم يتم التوصل إليها إلا مع بدايات القرن العشرين أنها موجودة في القرآن وكان

(1) موقف احميدة النيفر تحت عنوان: التفسير العلمي وتعطل المنظومة الثقافية الإسلامية: إسلام اون لاين الخميس، 25 مارس2004.

الشيخ الطنطاوي الجوهري، تابعاً وناسجاً على منوال سابق، بل قديم، إلى حجة الإسلام الإمام أبي حامد الغزالي، وهو يسمي مجالات العلم الكامنة في القرآن ويفصلها فهي ليست العلوم إجمالا وإشارة وتلميحا، وإنما هي تحديدات وتدقيقات معينة[1].

في تفسير الجوهري فقرات يبدو فيها مستوعبا لإشكالية أن البحوث العلمية مكانها المخابر ومراكز التطوير، وفي فقرات يتحول القرآن في نظره إلى آلة معجزة تنتج بوضوح كل العلوم التي يمكن أن يستوعبها العقل البشري والعلوم التي لا يمكنه حتى التفكير في إمكانية وجودها.

تحليل عناصر تفسير الجوهري يسمح بتتبع منطلقات الشيخ والحدود التي لا يقف عندها من يسير وفقها، وهو مما يمكن فهمه أيضا من دراسة هند شلبي: الموقف الحماسي لأصحاب القول بالتفسير العلمي يعتبر وليد ظروف قاسية عاشتها المجتمعات الإسلامية بعد أن فقدت سيادتها على المستويات الفكرية والسياسية والاقتصادية، ونادت بأنّ ما تفاخر به أوربا اليوم هو في الواقع ملك لنا من أربعة عشر قرنا تخلينا عنه ولابد من العودة إليه[2].

المعارضون للتفسير العلمي

صنف الدارسون للتفسير العلمي والإعجاز العلمي رواده إلى أصناف رئيسية وأصناف فرعية والمتتبع للدراسات الأكاديمية خصوصا يكتشف حرصا دقيقا على التصنيف لكل من أدلى برأيه في الموضوع،وإن هذه الاجتهادات تبين اختلافات واضحة، فبعض المصنفين لدى الباحث أ كمؤيد نجده مصنفا كمعارض لدى الباحث ب، وهذه الحيوية في الاجتهاد دليل على أن الموضوع ورشة مفتوحة تتوفر

(1) محمود عزب: http://science-islam.net/article.php3?id_article=510&lang=ar#top

(2) هند شلبي: التفسير العلمي بين النظريات والتطبيق م، م، س.ص48.

فيها كل وسائل الحسم، لكن تجارة الأوهام دائما تنتصر بين النيام.يحلل عبد الرحمان الشايع أفكار المعترضين على التفسير العلمي فيرى أن:

عباراتهم تختلف في قسوة انتقادها لهذا التوجه بين متشدد ومعتدل، ويجمعها كلها الرفض له.فقد عد أبو حيان في معرض نقده الفخر الرازي توسع العلماء في مباحث العلوم الأخرى عند تفسير القرآن الكريم، فضولاً في العلم وقسى فجعله من التخليط والتخبيط في أقصى الدرجة[1].

أهم أسباب رفض التفسير العلمي:

هناك تنوع في الآراء حول الموضوع وفي صف الرافضين أحصت هند شلبي بعض الأسباب:

- القرآن موجه إلى عموم الناس بينما يتوجه العلم إلى أهل الاختصاص.
- يخاطب القرآن النفوس بينما يخاطب العلم العقول.
- تتسم الحقائق في القرآن بالاستقرار بينما تخضع النظريات العلمية إلى التغير المستمر مما يعرض القرآن للبلبلة و النيل من قدسيته.
- لم يرد التفسير العلمي عن السلف وفي ذلك تجهيل للرسول والصحابة.
- في هذا التفسير تصرف غير مشروع في اللفظ القرآني والبلاغة القرآنية[2]

معركة الوجود الحضاري هذه دخلها أيضا سيد قطب ورأى أن ذلك الاتجاه في التفسير يحيد عن الصواب:

(1) د. محمد عبد الرحمن الشايع: التفسير م، م، س.

(2) هند شلبي: التفسير العلمي م،م، س ص38وص39 .

وإني لأعجب لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن، الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليسمنه، وأن يحملوا عليه ما لم يقصد إليه وأن يستخرجوا منه جزئيات في علـــوم الطب والكيمياء والفلك وما إليها كأنما ليعظموه بهذا ويكبروه، إن القرآن كتاب كامل في موضوعه، وموضوعه أضخم من تلك العلوم كلها لأنه هو الإنسان ذاته الذي يكشف هذه المعلومات وينتفع بها[1].

سيد قطب يرد بما يعيد العقل المسلم إلى معركته الحقيقية ضد الجهل والهزيمة وهو يتفق مع كل الذين رفضوا أن تستنطق الآيات لخدمة توظيف معين للقرآن ســـواء بحسن نية أو سوئها.في التاريخ الإسلامي كان لموقف الشاطبي أثر في كل الـــذين جاؤوا بعده،وإذا كان المفكر المسلم أجاب عن تحدي العلم بطريقته فإن الشـــاطبي منذ القرن القرن الثامن الهجري (14م) كان من المعارضين لهذا المنحى ولا يخلـــو مرجع تقريبا من استحضار موقفه الذي بينه في كتـــاب: الموافقـــات في مبحـــث خاص:ألنَّوْعُ الثَّانِي: فِي بَيَانِ قَصْدِ الشَّارِعِ فِي وَضْعِ الشَّرِيعَةِ لِلْإِفْهَامِ ومَا تَقَرَّرَ مِنْ أُمِّيَّةِ الشَّرِيعَةِ، وَأَنَّهَا جَارِيَةٌ عَلَى مَذَاهِبِ أَهْلِهَا وَهُمُ الْعَرَبُ، يَنْبَنِي عَلَيْهِ قَوَاعِدُ:.

مِنْهَا: أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ تَجَاوَزُوا فِي الدَّعْوَى عَلَى الْقرآن الْحَدَّ؛ فَأَضَافُوا إِلَيْهِ كُلَّ عِلْمٍ يُذْكَرُ لِلْمُتَقَدِّمِينَ أَوِ الْمُتَأَخِّرِينَ؛ مِنْ عُلُومِ الطَّبِيعِيَّاتِ وَالتَّعَالِيمِ، وَالْمَنْطِقِ، وَعِلْمِ الْحُرُوفِ، وَجَمِيعِ مَا نَظَرَ فِيهِ النَّاظِرُونَ مِنْ هَذِهِ الْفُنُونِ وَأَشْبَاهِهَا، وَهَذَا إِذَا عَرَضْنَاهُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ لَمْ يَصِحَّ، وَإِلَى هَذَا؛ فَإِنَّ السَّلَفَ الصَّـــالِحَ مِـــنَ الصَّـــحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ يَلِيهِمْ كَانُوا أَعْرَفَ بِالْقرآن وَبِعُلُومِهِ وَمَا أُودِعَ فِيهِ، وَلَمْ يَبْلُغْنَا أَنَّـــهُ تَكَلَّمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا الْمُدَّعَى، سِوَى مَا تَقَدَّمَ، وَمَا ثَبَتَ فِيـــهِ مِـــنْ أَحْكَامِ التَّكَالِيفِ، وَأَحْكَامِ الْآخِرَةِ، وَمَا يَلِي ذَلِكَ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ خَوْضٌ وَنَظَرٌ، لَبَلَغَنَا مِنْهُ مَا يَدُلُّنَا عَلَى أَصْلِ الْمَسْأَلَةِ؛ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ

(1) سيد قطب في ظلال القرآن دار الشروق الطبعة 11.ج1 ص182.

مَوْجُودٍ عِنْدَهُمْ، وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْقرآن لَمْ يُقْصَدْ فِيهِ تَقْرِيرٌ لِشَيْءٍ مِمَّا زَعَمُوا، نَعَمْ، تَضَمَّنَ عُلُومًا هِيَ مِنْ جِنْسِ عُلُومِ الْعَرَبِ، أَوْ مَا يَنْبَنِي عَلَى مَعْهُودِهَا مِمَّا يَتَعَجَّبُ مِنْهُ أُولُو الْأَلْبَابِ، وَلَا تَبْلُغُهُ إِدْرَاكَاتُ الْعُقُولِ الرَّاجِحَةِ دُونَ الِاهْتِدَاءِ بِإِعْلَامِهِ، وَالِاسْتِنَارَةِ بِنُورِهِ، أَمَا أَنَّ فِيهِ مَا لَيْسَ مِنْ ذَلِكَ، فَلَا.

ويرد الشاطبي في كتابه على أدلة المؤيدين خصوصا في أدلة القرآن،ويبرر موقفه منطقيا في:فَصْلٌ:لَا بُدَّ فِي فَهْمِ الشَّرِيعَةِ مِنِ اتِّبَاعِ مَعْهُودِ الْأُمِّيِّينَ، وَهُمُ الْعَرَبُ الَّذِينَ نَزَلَ الْقرآن بِلِسَانِهِمْ[1].

نص الشاطبي مهم ونجد فيه معاني أفكار شبلي النعماني ووحيد الدين خان وحميدة النيفر وهند شلبي وعائشة عبد الرحمان ومهدي الكلشني وغيرهم،ويعد مستند من يرى رأيه، لكن الشيخ بن عاشور كان له موقف من رأي الشاطبي:

اشتد الشيخ بن عاشور في الرد على الشاطبي واعتبر الأساس الذي بنى عليه نظريته أساسا واهيا ورده من ستة وجوه[2].

ورغم ذلك كمل الشيخ بن عاشور نظرته حيث يضيف منصفا:

إنكار وجود العلوم في القرآن لديه –الشاطبي–لا يعود إلى هذه الاعتبارات بل انه بنى موقفه على ما جعلته الشريعة محل اشتراك بين الناس لبساطته ويسر الإلمام به سواء كان ذلك في التكاليف الاعتقادية أو العملية،مراعاة لعدم المشقة في التكليف،لذلك يقول الشاطبي إن الواجب في هذا المقام إجراء الفهم في الشريعة على وزان الاشتراك الجمهوري الذي يسع الأميين كما يسع غيرهم.

يضيف ابن عاشور: أن القرآن أتى لينتقل بالعرب من الجهل إلى العلم، وأن

(1) الموافقات في أصول الشريعة لأبي إسحاق الشاطبي تحقيق عبد الله دراز الجزء الثاني ص65 وما يليها.

(2) هند شلبي: التفسير العلمي م،م،س .ص23.

طبيعة الدعوة القرآنية هي العموم،وأن القرآن لا تنقضي عجائبه يعني معانيه فلا يصح قصرها على مبلغ العرب من العلم زمن نزوله،وأن من معاني الإعجاز في القرآن إيجاز اللفظ ووفرة المعاني وتفاوت الأفهام في إدراك معاني القرآن أمر معقول[1].

موقف الشيخ بن عاشور من رفض الشاطبي يجد تبريره جزئيا في اختلاف الأزمنة،وزمن الشيخ بن عاشور كان زمن الهزيمة وفي هذه الأزمنة التمسك بالثوابت آمن دفاع عن الذات.محمد كامل حسين يرفض بدوره مبدأ وجود العلوم في القرآن لثلاث أسباب: اختلاف الموضوع بين العلم والقرآن،واختلاف المنهجية في تبليغ حقائقهما،وتخصيص الدين بمهمة يعجز العلم عن القيام بمثلها. ويقول عن الكتب المترلة ليس لها بالعلم الحديث صلة ولا يضيرها في شيء أن تكون بمعزل عن هذه العلوم. وكيف يريدون أن يظل القرآن هاديا للناس إذا دأبوا على تأويله حسب تغيرات العلم الحديث وهو سريع التقدم والتغير، وسمى التفسير العلمي بالتفسير الحرباوي لأنه لا يقر له قرار[2].

يلاحظ أن محمد كامل حسين يحلل الآثار العكسية لهذا المسلك والتبعات الخطيرة على الأمن الإيماني للناس، وأفكاره تدخل في ملف رفض التفسير العلمي وتابعه الخارق الإعجاز العلمي.

الشيخ محمود شلتوت في تفسيره للأجزاء العشرين وهو المتوفى في عام 1963 ينبه للآثار السيئة التي يقع فيها من يريد تحويل القرآن عن مساره الصحيح ويفتح عنوانا آخر في الملف السابق:

لا نكاد نعرف علما من العلوم التي اشتغل بها المسلمون في تاريخهم الطويل إلا

(1) م،ن ص24.

(2) محمد كامل حسين في كتابه الذكر الحكيم نقلا عن هند شلبي:التفسير م،م،س ص25.

كان الباعث عليه خدمة القرآن الكريم من ناحية ذلك العلم[1]. وهناك مع الأسف الشديد ناحيتان كان من الخير أن يظل القرآن بعيدا عنهما احتفاظا بقدسيته وجلاله، هما ناحية استخدام آيات القرآن لتأييد الفرق والخلافات المذهبية،وناحية استنباط العلوم الكونية والمعارف النظرية الحديثة منه[2].

يبين الشيخ شلتوت الآثار الوخيمة لهذا المسلك على عقيدة المسلم:

نظروا إلى القرآن على هذا الأساس فأفسد ذلك عليهم أمر علاقتهم بالقرآن وأفضى بهم إلى صور من التفكير لا يريدها القرآن ولا تتفق مع الغرض الذي من أجله أنزله الله، هذه النظرة للقرآن خاطئة من غير شك لان الله لم يترل القرآن ليكون كتابا يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع المعارف،وهي خاطئة لأنها تحمل أصحابها والمغرمين بها على تأويل القرآن تأويلا متكلفا يتنافى مع الإعجاز ولا يسيغه الذوق السليم، وهي خاطئة لأنها تعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم في كل زمان ومكان والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار و لا الرأي الأخير[3].

أسباب موقف الشيخ شلتوت تتقاطع مع أسباب كل الرافضين لهذا التفسير للقرآن.وهو يفصل في القضية بطريقة توفق بين الوحي الإلهي والجهد البشري في معرفة أسرار الكون المسخر له والمستخلف فيه بل هو يرى في ذلك تعديا على صفة الإعجاز في القرآن، وتنبيهات الشيخ شلتوت يجب إبرازها خصوصا مع ما ينتج مكتوبا ومسموعا ومرئيا الذي جعل للإعجاز والتفسير العلمي ابهارات ملونة:

(1) محمود شلتوت: تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة الأولى دار الشروق ط 12 1424/2004 ص7.
(2) م،ن،ص.10.
(3) م،ن،ص12.

فلندع للقرآن عظمته وجلالته..ولنعلم أن ما تضمنه من الإشارة إلى أسرار الخلق وظواهر الطبيعة إنما هو لقصد الحث على التأمل والبحث والنظر ليزداد الناس إيمانا مع إيمانهم،وحسبنا أن القرآن لم يصادم ولن يصادم حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليها العقول[1].

اليقين بأن ليس في القرآن ما يصادم حقائق العلوم هو تنبيه إلى نسبية العلم ويقينية القرآن وكلاهما يتعامل معهما عقل إنسان تخترق فطرته عوامل كثيرة منها ما يثبط وينحرف به عن مسلك سعادته.

السؤال الحقيقي والعميق الذي نقرأه في بعض الكتب والذي يتجاوزه الكثير لحدته وصرامته هو ما قاله مختصرا الشيخ أمين الخولي:

هب هذه المعاني العلمية المدعاة كانت هي المعاني المرادة بالقرآن فهل فهمها أهل العربية منه إذ ذاك وأدركوها،وإذا كانوا قد فهموها فما لنهضتهم العلمية في علوم الحياة المختلفة لم تبدأ بظهور القرآن و لم تقم على هذه الآيات الشارحة لمختلف نظريات العلوم المفهمة لدقائقها،وإن كانت لم تفهم منها و لم يدركها أصحاب اللغة الخلص من عبارتها كما هو الواقع فعلا فكيف تكون معاني القرآن المرادة وكيف تكون تلك الألفاظ مفهمة لها،وهل هذه هي المطابقة لمقتضى الحال لربما كان ضره أكثر من نفعه[2].

أمين الخولي يدعم أفكار الشاطبي بحدة يفرضها الواقع و لكنها أقل من حدة الاندفاع غير المدروس الذي انتهجه بعض الشغوفين بالتفسير العلمي و الإعجاز العلمي كما حدث مع مصطفى محمود.

(1)م،ن . ص14.

(2) فهد بن عبد الرحمان بن ليمان الرومي:اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر مؤسسة الرسالة بيروت .ط1997/3 ص581.

فتنة مصطفى محمود:أزمة منهج

شكل مصطفى محمود ظاهرة فريدة في مسألة علاقة العلم بالدين فهو طبيب متخصص في الأمراض الصدرية له حوالي تسعين كتابا في مختلف المواضيع ،ورغم قربه من مركز القيادة السياسية حوكم بدعوى الكفر،ورغم تبرئته في المحكمة، فإنّ بعض علماء الدين والمفكرين كفروه، وصدرت في تكفيره كتب، والأهم في مسار مصطفى محمود هو أن له 400 حلقة تلفزيونية لبرنامجه الشهير: العلم والإيمان، وهو الذي حير الدارسين بتناقضاته والقائل بأنه عاش ثلاثين عاما من المعاناة والشك والنفي والإثبات، وله كتاب شهير هو حوار مع صديقي الملحد، وكانت كتبه سريعة الانتشار.يختلف مصطفى محمود عن جوهري طنطاوي في خلفية كل واحد منهما الشخصية والعلمية ولكن أيضا في تحديات الزمن الذي عاشا فيه فالجوهري توفي في 1940 في سن السبعين وكان أكبر تحدي للمسلمين آنذاك هو التبعية والذل نتيجة تخلفهم عن ركب الحضارة وعدم التزامهم برسالة دينهم، أما مصطفى محمود فقد ولد في 1921 ومات عن 88 سنة وعاش مرحلة حراك فكري كبير في مصر، وكان الإلحاد اختيارا فكريا لم يتوان البعض في إظهاره والدفاع عنه وكانت هناك أيضا تيارات تشكيكية في بعض ثوابت الدين مع فتنة بالتطورات العلمية والانجازات التي غيرت كثيرا من حياة البشر، وإذا كان الطنطاوي مفسرا فان مصطفى محمود كان يبني الجسور بين العلم والدين باستعمال خطاب خاص يهدف من خلال بلاغته إلى انتصار الدين أو على الأقل مصالحة الطرفين.

صدرت كتب ودراسات ومقالات نقدا لطريقة مصطفى محمود منها كتابا عائشة عبد الرحمان: القرآن والتفسير العصري وكتاب القرآن وقضايا الإنسان، كما ألف مصطفى إسماعيل كتابا يحلل فيه خطاب مصطفى محمود وأبعاده وخطورته وغيرهما ممن كتب كثير.

يرى عاطف أحمد أن مصطفى محمود يطرح عديدا من القضايا المحورية المتعلقة بمحاولات إحياء الفكر الديني وتجديده ليصمد أمام تحديات العلم يندر أن يجمع بينها كتاب آخر، والسمة الرئيسية لتلك القضايا أنها تشكل مواضيع جدل حاد بين الفكر العلمي ذي الطبيعة الواقعية والفكر الديني ذي الطبيعة الميتافيزيقية[1].

ويرى أن تفكيك الآليات التي اعتمدها مصطفى محمود في إنجاز مشروعه لم تكن سليمة من التخبط: والواقع أن المحاولة التي أقدم عليها مصطفى محمود للتوفيق بين أنماط ذات طبيعة متعارضة ومتناقضة هي محاولة تكلف من يتصدى لها كثيرا من العناء،فهي دفاع عن قضية خاسرة بحكم التاريخ وحكم المنطق وحكم الواقع[2].

ما يقوله عاطف أحمد قاله الشاطبي ومحمود شلتوت بأسلوب آخر لكن عاطف أحمد أمامه نموذج تطبيقي توقف عنده الناس ما بين معجب ومفتون ومتوقف ونافر. ويقف مشروع مصطفى محمود حسب ناقديه أمام أزمة حادة: لجأ مصطفى محمود بوعي أو دون وعي إلى إخفاء التناقض الأساسي بين العلم والدين، ذلك التناقض الذي يتضح من كونهما أي العلم والدين نمطين مختلفين من أنماط التفكير. فلكل منهما طريقته المستقلة في النظر إلى الظواهر وفي تحديد طبيعتها وفي طريقة بحثها وفي مقياس التحقق من صحة النتائج التي يتوصل إليها.

اعتمد الكاتب على متابعة دقيقة لعمل مصطفى محمود والذي كان له صدى واسع بين الناس خصوصا عبر وسيلة واسعة كالتلفزيون، وبحدة في التعبير يكاد يذكرنا بقول التوحيدي في تفسير الرازي يقول:

هشم مصطفى محمود الجهاز العلمي للمعرفة ككل إذ يقدم العلم لا بوصفه أسلوبا لمعالجة قضايا الفكر والواقع بمختلف مستوياتها، وإنما على انه مجموعة متناثرة

(1) عاطف احمد: نقد الفهم العصري للقرآن ط3، دار العالم الجديد القاهرة.ص6.

(2) عاطف احمد: نقد الفهم العصري للقرآن ط3، دار العالم الجديد القاهرة.ص6.

من الحقائق الجزئية منعزلة عن منهجها ومستقلة بذاتها فيتناول كل منها على حدة ويحاول التوفيق بينها وبين ما ورد في النصوص الدينية بشأنها. وثانيا هو يحول المشخصات الغيبية إلى رموز بإفراغها من كل محتوى حسي منسوب إليها وتجريدها مما يعزى لها من مدلولات واقعية مباشرة، وهو يتناول المسلمات الدينية بأكثر من منهج وبأكثر من تأويل، ويقدم الفكر الديني وكأنه مجموعة من الظواهر التي يسجلها العلم لكن يعجز عن تفسيرها[1].

النقد هذا يمكن تطبيقه على خطابات الإعجاز العلمي اليوم التي يبدو أنها تتجاهل عمدا ما نبه إليه المفكرون، ولا يلاحظ حتى أنهم جددوا في الأسلوب مما يجعل تلك النقود صالحة اليوم لتوقيف هذا الانجراف. وفي البحث في تاريخ العلوم وتاريخ التفكير الفلسفي يمكن للباحث أن يتأكد أن معركة واهية نشأت بين العلم والدين عندما لم تحترم خصائص كل مجال:

منذ أن صاغ كوبرنيكوس نظريته في القرن السادس عشر وأوضح أن الأرض ليست هي مركز الكون تصدع جدار العالم اللاهوتي القائم على إن الإنسان هو غاية الوجود وإن الأرض هي مركز الكون لأنها المنفى الذي اختاره الله للإنسان ليكفر فيه عن خطيئته الأصلية[2]، اتضح أن الأرض ليست سوى كوكب صغير بين عمالقة، وأنها تنطبق عليها قوانين حركة الأجسام في الفضاء مثل سائر الأجسام وأنها كروية وليست مسطحة، وكان على الفكر اللاهوتي إن يغير ثوبه القديم فقام في البداية بتكفير ما أتى به العلم الجديد، ثم أدرك أن المعركة خاسرة وراح يعيد النظر في ملامحه الأصيلة ثم يكيفها قسرا، ومصطفى محمود يشارك في هذه اللعبة

(1) م،ن،ص7.

(2) م ن ص46.

القديمة الجديدة[1].

المؤكد أن كلمة لعبة المقصود بها بعيد عن العبث بمفهومه الوجودي الفلسفي والمجال الأقرب لموقعة هذا الجهد لمصطفى محمود وقبله الجوهري هو جناح علم الكلام باعتباره يدافع عن الإيمان ويتحدى ما يربكه ويحاول صناعة خطاب ديني بلغة العصر وآلياتها بضعف الواقع وبتناقضاته.لذلك يقول عاطف أحمد:

إن حديث الشيخ جوهري –وهو المعاصر لنا– عن البيولوجيا والجيولوجيا لا ينبغي أن يغيّب عنا بحال من الأحوال خطّ التواصل مع البناء الفكري والعقدي للغزالي والأشعري من قبله. فهو –بوعي أو دون وعي– ينكفئ على مفهوم للنص كما استقرّ منذ القرن الثالث (بعد محنة خلق القرآن). ففي نسيج الثقافة العربية الإسلامية استقرّ أن الكلام الإلهي هو صفة ذاتية قديمة، وليست فعلاً من أفعاله، وينجم عن هذا انحسار خطير لقيمة الإنسان ومعرفته وتجربته؛ إذ لا يستطيع المخلوق أن يعتبر نفسه المستهدف الرئيسي والمخاطب الأول بالكلام القديم. إنه لن يكون قادرا على استيعاب ما لم يخلق له في حدود تجربته المنفتحة. فالسبيل المتاح له هو التقاط بعض أسرار النص وغرائبه وهو مسعى لن يغيّر من طبيعة الإنسان وما يمكن أن تفتحه له تجربته من آفاق. هذا التعامل غير التاريخي مع النص يؤدي إلى قطيعة مع الواقع الاجتماعي الثقافي. إنه يؤسس لمنهج لا تاريخي للمعرفة[2].

الخلفية الفكرية التي ينطلق منها المحلل تقتضي التحفظ على الأبعاد التي ممكن أن يصل إليها النقد خصوصا في مسألة التاريخية والمجال المغلق للرؤية الكلامية.علي الأسعد في تتبعه للموضوع في رسالة أكاديمية ومن خلال عمله على تفكيك عينات من التفسير العلمي والإعجاز العلمي لم يختلف عن الرؤى السابقة ولكنه يدقق في

(1) م ن ص47.
(2)م ن ص48.

عناصر منهجية غاية في الأهمية وتجعلها نقدا داخليا موضوعيا:

حرص المؤيدون على تأصيل التفسير العلمي وذلك بالبحث عن أدلة تدل على إمكانيته ومشروعيته، حاولوا أولا التوفيق بين العلم والقرآن ومن ثم اخذوا يبحثون عن أدلة تسوغ تطبيقاتهم التوفيقية فكانت هذه التطبيقات ذاتها هي الدالة على الدليل وليس الدليل هو الذي دل عليها، فالقرآن هو تفصيل لكل شيء إذا قام المفسر بالإسهاب التفصيلي في أي أمر يذكره القرآن والإعجاز العلمي أشار إليه القرآن بتحديه لأهل الكتاب الذين كانوا أهل علم بأن يأتوا بأهدى من هذا الكتاب لأن النبي الذي تحداهم بذلك أمي لا علم له بمعارفهم فلزم عن ذلك عند المفسر العلمي بأن يكون القرآن سبق إلى الإشارة للعلوم الحديثة فألزم ما لا يلزم وكذلك بالنسبة للحديث والآثار.

النماذج التي طبق عليها علي أسعد دراسته تؤكد إلى حد بعيد هذه الفكرة؛ واليوم متتبع ما يقدم تحت نفس العنوان سيؤكد ذلك.

وحيد الدين يحلل أيضا المأزق المعرفي الذي انحرف عن المسار الصحيح للمعركة الحقيقية:

وعلى سبيل المثال إن الأعمال التي قام بها علماؤنا لإثبات النبوة تفترض مقدما أن العصر الحديث يدعى:أن محمدا ﷺكان نبيا كاذبا فيبدءون في جمع كميات كبيرة من المواد التي تثبت أن محمدا كان نبيا صادقا، ومغزى القول على حين يشك الإنسان الجديد في المبدأ نفسه فهو لا يؤمن بالنبوة أصلا.

ومواصلة لرصد هذا الخلل المنهجي يلاحظ وحيد الدين خان:

وهذا نوع آخر من علمائنا يدركون موقف الفكر الحديث يرون أن كل ما توصل إليه أئمة الغرب يعد من المسلمات العلمية ومن ثم تقتصر بطولتهم على إثبات أن هذه النظريات التي سلم بها علماء الغرب هي عندنا. وهذه الحالة تورطنا

بصورة أكبر عندما تتعلق المسألة بجانب أساسي وهام من أفكار الدين فلا بأس بأن يقوم أحدنا بتفسير جديد لظاهرة الشهاب الثاقب التي وردت في القرآن حين يجد كشفا جديدا في علم الفلك الحديث ولكننا لو قبلنا نظرية كلية شاملة وذات علاقة بالمشكلات الأخرى التي تثار حول الدين فسوف يكون لذلك تأثير عميق وكلي في هيكل الفلسفة الدينية نفسه[1].

فهم الإشكاليات الحقيقية للعصر الذي يعيش فيه المسلم وتركيز الاهتمام في الحلقة الصلبة منها يجعل الاجتهاد في مساره الصحيح، وللوصول إلى ذلك لابد من القضاء على مصادر التشويش والتخلص من الأفكار الطفيلية المتورمة في العقول المنهكة، النهوض مسألة إستراتيجية تصنعها روح حية وعقل مستقيم، واجتهاد الإعجاز والتفسير العلميين يجب أن يعرض على خبراء يستخرجون منه ما أفاد وما يفيد وما أضر وما يضر ويفصلون نهائيا في القضية. احميدة النيفر يرى ضرورة موقعة ذلك الاجتهاد في المكان الذي يسهل التعامل معه بموضوعية:

ما سُمّي تفسيرًا علميًّا يتطلب منا اعتباره ظاهرة عَرَضية، أي أن يعتبر علامة على أزمة أعمق في آلية التفكير الديني ضمن البنية الثقافية العربية. من هذا المنظور فهو لا يختلف -في جوهره- عن التفسير الأيديولوجي للقرآن (قطب - المودودي) فكلاهما يعبر عن تواصل تَعَطّل المنظومة الثقافية في تعاملها مع النص المقدس. وهو التعطّل الذي بدأ مبكرًا وممثلاً في أبي حامد الغزالي[2].

دراسة علي أسعد الأكاديمية [3](نشر أجزاء منها عام 2004 على موقع إسلام أونلاين) ضمن ملف هام في زمن هام من ثورة الفضائيات واستغلال خطاب الإعجاز للتغطية على غياب الإنجاز العلمي،وتتقاطع نتائج علي أسعد مع نتائج

(1) وحيد الدين خان:الإسلام يتحدى م، م، س.ص16.

(2) احميدة النيفر م، م، س.

(3) علي اسعد :م، م، س.

عاطف أحمد وإذا كان الثاني ركز على تجربة مصطفى محمود فان الأول وسع دائرة عيناته وبين التخبط داخل أصحاب التفسير العلمي والإعجاز العلمي الذي أربك مرة أخرى العقل المسلم وأضاف له دهاليز أخرى يضيع فيها طاقاته:

بعض التفاسير العلمية عكست الأهداف التي يريد المفسر العلمي تحقيقها؛ من إظهارٍ للصلة بين العلم والقرآن، وأن آيات القرآن دالة على ما يقول به العلم، فكان كل ذلك على حساب النص؛ حيث طغت المادة العلمية التي يريد المفسر أن يربطها بالنص القرآني على تفسيره، فلم يلتفت إلى موضوع الآية ولا إلى سياقها ولا إلى دلالات ألفاظها، وإنما كان همه أن يجعلها دالة على ما يقول به العلم، هذا الذي أدى إلى تفسيرٍ للظواهر الكونية وليس إلى تفسير آيات القرآن الكريم. ؟ وهل استطاع المفسر أن يستدل بالآية على أسبقية القرآن في ذكره للعلوم دون أي تكلف وتحميل للآيات ما لا تحتمل؟

ومثلما استفاد عاطف أحمد و غيره من المقاربة الابستمولوجية للوصول إلى نتائج حيادية يصل علي أسعد إلى النتيجة التي من المفروض أن تدفع بالمتلاعبين بالعقول إلى مراجعة الذات واستحضار صاحب القرآن العالم بكل شيء حيث يقول:

يظهر واضحا مما سبق أن اعتماد المفسر العلمي على التفسير بالقرآن الكريم، أنه لم يكن مفصولا عن أفقه المعرفي وثقافته العلمية، بل كان ذلك دافعا إلى أن يبحث في الآيات القرآنية عن إجابات لتساؤلات أثارها العلم. فالعلم هو المنطلق وهو الأساس، والقرآن هو القابل للتشكل حسب نتائج العلم،

علي أسعد يستدرك احتراما للأمانة العلمية:

ولكن هذا ليس مطلقا، فهناك تفاسير كان منطلق المفسر فيها من النص وثقافة العصر.

علي أسعد طبق منهجه التحليلي النقدي على إنتاجات قال أصحابها أنها دليل

على الإعجاز العلمي في القرآن فهم ضمنيا يفسرون الآيات بأدوات جديدة يستقونها من مجالات معرفية عديدة بعضهم تخصص في تفسير الآيات التي لها علاقة بدراسته العلمية ولكن البعض الآخر اعتبر نفسه فوق التخصص وأفتى في كل شيء.

أزمة المناظرة

كان المستشرقون وكتاباتهم في جانبها التثبيطي والإحباطي معركة أخرى للعقل المسلم المتعب والمرتبك، وأهم ما كان عليه مواجهته هو تفكيك الخطاب الاستشراقي وفصل المادة العلمية فيه عن الحمولة الإيديولوجية والتآمرية، وأنى لعقل مأزوم أن ينجح دائما في ذلك اجنتس جولدتسيهر خصص فصلا اسماه: التفسير في ضوء التمدن الإسلامي وتحدث عن حركة أرادت الإجابة عمن قالوا أن هناك تضاد بين الحضارة والإسلام: حركة برزت منذ عشرات السنين في دائرة مطردة الاتساع من مسلمي الهنود وقادة هذه الحركة وأتباعها يذهبون من الناحية العلمية والعملية لا إلى إمكان التوفيق بين ذينك الضدين المتناقضين فحسب بل يذهبون أبعد من ذلك وإن كانوا مدفوعين بنشاط دفاعي من جانب واحد حين يصورون مبادئ الإسلام الأساسية على أنها الموئل الاختصاصي للتقدم العقلي والاجتماعي[1].

ويعلق جولديسهر على ما جاء في كتاب سيد أمير علي عن روح الإسلام أو حياة محمد وتعاليمه ويرى:

يتضح اتجاه مذهبي دفاعي قوي هو أن الإسلام لا يقف فقط موقفا غير معاد للتقدم بل هو قد وضع على نحو أكثر تناسبا وموائمة لهذا التقدم، وإن إدراك معنى

(1) جولدتسيهر اجنتس: مذاهب التفسير الإسلامي تر عبد الحليم النجار مكتبة الخانجي مصر ومكتبة المثنى بغداد 1955 ص337.

الإسلام الأصلي المحرر من كل ملاحظة نسبية أو زمنية الذي هو دين محمد يتطلب أقوى حد من الموافقة على التنظيمات التقدمية في المجتمع والاعتراف النظري والاصطناع العملي لما يبلغه العلم من نتائج والمشاركة في كل ذلك[1].

شبه القارة الهندية شهدت حياة فكرية ثرية تخللتها تيارات تقترب وتبتعد عن النموذج الذي يرضي الله عز وجل،وكانت عيون الاستعمار ساهرة على تتبع ذلك للتدخل حينما تسمح الفرصة والتركيز على تلك المنطقة له علاقة أيضا بإنتاجات شبلي النعماني ووحيد خان وغيرهما كما يربط بالنموذج الذي كانت تريد الترويج له الدوائر الاستعمارية في صراع الوجود مع المسلمين وعقيدة الجهاد ضد المستعمر.

ينتقل المستشرق إلى المناظرة الهامة بين الأفغاني ورينان ويجعلها ضمن سياق أفكاره العام: الجدل الملحوظ بكثرة بين جمال الدين وارنست رينان في الصحيفة الفرنسية journal des débats وكان غرض هذا الجدل من جانب الأول إنقاذ شرف الإسلام وقوة مرونته تجاه الحضارة ودحضا لاقتناع رجال الجامعات الفرنسية المعارض لذلك[2].

دفاع المسلمين عن أنفسهم بالقرآن وتبرئته من مسؤولية تخلفهم كانت معركة شرسة خاضها العقل المسلم المتعب واجتهد وهو جريح.

حلبة صراع النص الحقيقي

حقق محمد الحداد النص الحقيقي للمناظرة السابقة وجعل القراءة تتجه إلى وجهة محاولة الذات المنكوبة ترميم ما بقي فيها، المنكوبة حيث تبين أن:أحمد أمين نشر تعريبا لنص الأفغاني حذف منه العديد من الفقرات التي رآها محرجة، ودأب

(1)م ن ص339 .

(2)م ن ص350.

الكتاب العرب بعده على الحديث عن ردّ الأفغاني من خلال النسخة المشوهة التي تركها لهم أمين.

محمد عبده تحدث عن هذا "الانتصار" في كتابه "الإسلام والنصرانية" وأعاد عبارة رينان ولكن بعد تحريفها، إذ غيّر كلمة "الإسلام" بكلمة "الفقهاء"، وهذا التحريف يتضمّن اعترافًا بأنّ أصل المشكلة كامن في الثقافة الإسلامية ذاتها.

رينان يعترف أنه فيما كان ابن رشد، آخر الفلاسفة العرب، يموت حزينا منبوذا، كان الغرب يتهيأ لميلاد جديد و لم يكن ينقصه غير الكتب والمصادر من العصر القديم. وكان المنطقي أن تطلب تلك المصادر من مكتبات القسطنطينية التي احتفظت بالأصول بدل أن تطلب من تراجم هي في الغالب رديئة ومن لغة لم تكن مهيأة حقا لنقل التراث الإغريقي. إلا أنّ المنازعات الدينيّة كانت قد أحدثت شرخا بين العالمين اللاتيني واليوناني و لم يكن لدي الغرب مختصون في الهيلينستية فانتظروا ثلاثة قرون قبل أن يحصلوا عليهم.

محمد الحداد المحقق يرد: لكن ليس كلّ ما كتب باللاتينية هو من أمجاد روما ولا كلّ ما كتب باليونانية هو تراث إغريقي ولا كلّ ما كتب بالعربية هو إبداع عربي ولا كلّ ما حصل في المجتمعات المسيحية هو من نتائج الدين المسيحي ولا كلّ ما حدث في البلدان الإسلامية هو من ثمرات الإسلام. هذا هو المبدأ الذي كان قد اعتمده العلامة رينهارد دوزي في تاريخه للأندلس وهو عالم مشهود له بالكفاءة،ومصير غاليلو مع الكاثوليكية ليس بأفضل من مصير ابن رشد بين المسلمين.

محمد حداد ينبه أيضا أن عداء المسلمين للمستشرقين جعلهم يعيدون نشر الكثير من النصوص الكبرى بعد أن حذفت منها أسماء المحققين الغربّيين وهوامش تحقيقاتهم واتخذها حجّة على جهل الغربيين وتحاملهم على الحضارة العربية الإسلامية! وبلغت

قضية أصالة الفكر والعلوم مبالغ الشطط والتعنّت عندما قدّم التراث العربي الإسلامي مفصولا عن روافده السابقة للعروبة والإسلام، فيما تمّت المبالغة في تضخيم دوره في بعث النهضة الأوروبية حتى تخال وأنت تقرأ بعض الدراسات أنّ كوبرنيكوس وغاليليه وبيكون وديكارت لم يكونوا إلاّ لصوصًا حضاريّين سطوا على تراث العرب والمسلمين، واستعملوه لتقوية الغرب وتمهيد ثأره لهزائم الحروب الصليبية[1].

في هذا المناخ حاول بعض المسلمين الانتقام لكرامتهم وتبعيتهم للغرب الذي ينجز فتوحات علمية كبيرة، وفي هذا المشهد التراجيدي برز موريس بوكاي الطبيب الفرنسي الخاص في مكان خاص وأصدر كتابا محوريا: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم. فرح المسلمون في زمن شح فيه فرح الانتصار العلمي واحتفوا بالكتاب نشرا وتوزيعا وترجمة، وأحيط الكتاب بهالة حجبت الصوت الخافت الذي ينبه أن الدكتور لم يسلم وأنه أنكر أحاديث نبوية صحيحة وتكلم عن بعضها بطريقة صادمة. ولاحقا شقت أصوات محتشمة جدار الصمت للتنبيه أيضا إلى أن هناك نقودا لبعض ما جاء في الكتاب من علماء مختصين وأن هناك نقدا منهجيا لطريقة تعامل الدكتور مع الكتب المقدسة. فقد رد وليام .ف.كامبل رئيس الجمعية الكاثوليكية الوطنية للتربية على ما جاء في الكتاب، ومما لاحظه أن هناك معايير مزدوجة في استنطاق آيات الكتب المقدسة وتوجيهها في منحى غير موضوعي، وقد رد البعض على كتاب كامبل ولكن السجال في جوانبه المنهجية مازال آنيا.

خريطة التفكير في الموضوع اليوم وأسلمة المعرفة بدل إنتاجها

تنشأ في الكتابات العلمية الغربية مصطلحات جديدة وتولد تخصصات جديدة وتفتح أمام العقل الإنساني آفاقا بتسارع واضح وأصبح الحديث اليوم عن العلم ما

(1) الموقع الالكتروني الأوان في ماي 2007 ونشر في مواقع أخرى أيضا.

بعد العادي Poste normale وغيرها من المعجم الاصطلاحي المتجدد باستمرار والمطعم بجهود فرق علمية مدربة على استثمار الوقت وتقدير معنى الحياة. في هؤلاء الكثير من الملحدين الإنسانيين والملحدين المعتدين على حق الآخرين في الاختيار مستغلين معارفهم لإرباك المؤمنين ومنكري الديانات المعروفة والغنوصيين والمؤلهين لإله خاص لا ينتمي للديانات المعروفة والمؤمنين بالروحيات.الخريطة الاعتقادية لكبار العلماء المعترف لهم بالانضباط المعرفي لا يمكن رسم كل تضاريسها لان تلك العقول تجاوزت أسئلة محاكم التفتيش والمتناغمين مع فطرتهم لا يتسرعون في إعطاء الأحكام، ولعل الأسرار التي يصلون إليها من كنوز أودعها الله في ملكوته تجعل اللغة العادية غير محتملة لمشاعرهم،فالإنسان الذي يحل بجهد كبير مسألة رياضية أو إشكالا هندسيا أو معادلة في الكيمياء العضوية قد يصيبه الدوار والغرور فما بالك بأناس تقربوا من عوالم ربانية عصية الاقتحام على العقول. من القضايا التي يعرفها السجال بين العلماء ما يمكن توصيفه بقضية الإلحاد الناعم والإلحاد الشرس ويطلق البعض على النوع الثاني الإلحاد الجديد ويمثله ريتشرد داوينكس الفيزيائي الشهيرRichard DAWKINS والذي أخرج السجال إلى العامة وهو يعرف كيف يفعل ذلك باعتباره من العلماء المتخصصين في تبسيط المسائل العلمية الدقيقة ورفض بعض العلماء الملحدين هذا المنحى العدائي الذي اتخذه زميلهم من بينهم المختص في فلسفة البيولوجيا والعلاقة بين العلم والدين .Michael RUSE

وينضم للسجال Steven WEINBERG وهو أحد شركاء المسلم الباكستاني محمد عبد السلام في جائزة نوبل للفيزياء.والذي يعتبر الأديان مسبة للكرامة الإنسانية، ويلاحظ بعض المراقبين أن خطورة الوضع تكمن في المؤشرات التي تبين أن هذه السجالات العلنية بين العقول العالمة شجعت البعض على المضي في مسيرتهم التشكيكية والجهر بإلحادهم، ومن وسائل تتبع ذلك التعليقات على

مواقع أسواق الكتب على الانترنت أو التعليقات على بعض المقالات والتغطيات لنفس السجالات كما أن مبيعات الكتب الملحدة مؤشر حيث تبين مثلا ازدهارها بعد 11 سبتمبر 2001. وظهرت في هذا السجال اتجاهات جديدة لحل الإشكالات الكبرى التي يعجز العلم على الإجابة عليها بعيدا عن التدين التقليدي وبعيدا الأديان المعروفة.

فتنة العلم والعلماء لم تمنع المفكرين وحتى من داخل قبيلة العلماء من نقد خطورة الانجراف وراء تيار غرور العلم والعلماء خصوصا بعد سطوة العقل العلمي المنتصر في القرنين الماضيين، ظهر أن التطور العلمي والانجازات العلمية لا يعنيان بالضرورة تطور البشرية، حيث تلاحقت الكوارث الناتجة عن الاعتداءات المتزايدة على التوازن البيئي ونتائج السباق المحموم على التفوق ككارثة تشورنوبيل والبقرة المجنونة وغيرها مما لا يفلت من الدوائر المغلقة، ولكن كل ذلك دفع إلى الاهتمام في مركز القرارات السياسية بضرورة وجود رأي علمي حقيقي سمي الخبرة العلمية الموجهة للسياسي، وأصبحت هذه الخبرة مفتاحية لقياس المخاطر وإمكانيات الحد منها أو إلغائها وبالتالي كسر اليقين العلمي المغرور. المختصون في هذه القضايا هم الأولى بالمتابعة الدقيقة التي تصب في خدمة الإنسان بالعلم وخدمة العلم للإيمان وعلاقة الدين بالعلم وقضاياه المتشعبة والدقيقة التي تتجاوز التبسيط في صراع بين النظرية التطورية ونظرية الخلقالتي يتحالف فيها المؤمنون بالكتب السماوية والتي تعطي النظرة اليقينية في كيفية الخلق ومحاولة الصلح بين الاتجاهين المتناقضين من خلال بدائل كنظرية -CREATIONNISME VIEILLE TERRE والتي تجتهد في التوفيق بين العلم وقراءة جديدة لآيات الكتاب المقدس، والصراع لم يتوقف وهناك قضايا أمام المحاكم الأمريكية مثلا يدافع كل طرف عن أحقيته في الانتشار بين الناس خصوصا في المؤسسات التعليمية، بل نشأت مظاهر تكتلات ك bible belt ونشأت أيضا مراكز بحوث متطورة

لنفس الأغراض. إذا كان هذا يحدث في معاقل المخابر الكبرى والانجازات الكبرى فكيف يكون الأمر في العالم الآخر وليس أقرب لفهم ذلك من المسلم صاحب جائزة نوبل للفيزياء محمد عبد السلام والذي نالها مشاركة مع عالم ملحد. يقول في مقدمته لكتاب: الإسلام والعلم الأصولية الدينية:

لاشك أن العلم أضعف ما يكون اليوم في المناطق الإسلامية وذلك مقارنة بمختلف الحضارات المعاصرة، ولم يعد مقبولا إغفال ذلك أو الاستهانة به، حيث أصبحت الحياة الكريمة للمجتمعات المعاصرة مرتبطة ارتباطا مباشرا بمدى قوتها العلمية والتكنولوجية[1]. لا يوجد ما يسمى بالعلم الإسلامي كما لا يوجد علم هندي ولا علم يهودي ولا كونفوشيوسي ولا مسيحي أما الباحثون الذين باشروا هذا العلم فعليهم أن يخجلوا مما كتبوا باسم هذا العلم[2].

ويشير أن شريكه في الجائزة Steven WEINBERG معروف بإلحاده، وخلص إلى عدم وجود خلافات جوهرية بين أعمالهما البحثية. وحلل الأسباب الكامنة في التاريخ الإسلامي التي عطلت الانطلاقة العلمية الكبرى وفي مفارقة:

عدم وجود نظام كهنوتي في الإسلام السني لم يساعد كثيرا بسبب ميل الأئمة لاستعمال سلاح التكفير ببراعة وما كان على الحكام والشعوب إلا الاستماع والإذعان لهم [3] الإسلام ابتلي بأسوأ آفة دون الأديان جميعا في تاريخ البشرية ففي معظم البلدان الإسلامية توجد طوائف تكاد تكون أمية تماما لكن جرت العادة في الممارسة الفعلية أن يسندوا إلى أنفسهم مكانة الكهنة.وهذه الشريحة هي المسؤولة عن إثارة الجماهير والدهماء على مر التاريخ الإسلامي كذلك كانت مسؤولة عن الكبت والقمع في الإسلام الذي يتشابه إلى حد بعيد مع ما حدث في بعض

(1) برويز أمير علي بهائي بيود :الإسلام و العلم م،م،س ص13.
(2) م ن ص 14.
(3) م ن ص17.

المجتمعات المسيحية[1].

سيغضب الذين دافعوا عن رؤية مثالية للحضارة الإسلامية مثل محمد عبده من هذا القول لكنها الوجه القبيح من الحقيقة الذي يدفع أيضا برويز أمير علي وهو مفكر مسلم يجتهد ضمن المنظومة الغربية ويعيش التحدي المزدوج إلى رصد تداعيات أزمة علاقة العقل المسلم مع العلم الحديث: عينة مما تفعله بعض الجماعات الإسلامية: في كتاب العلوم بدلا عن سؤال ماذا يحدث إذا لم يتناول الحيوان الطعام يكون السؤال ماذا يمكن أن يحدث إذا لم يعط الله الطعام للحيوان ومثال آخر: يتولد الماء بمشيئة الله عندما تقترب ذرات الهيدروجين من ذرات الأوكسجين[2].

ويحلل برويز أمير علي واقع العلم عند المسلمين وسيطرة قراءة معينة لعلاقته بالدين عندما يذكر ثورة سيد أحمد خان ضد فتاوى تحريم دراسة الرياضيات والعلوم المدنية[3]. كما ينبه أيضا إلى أن المسلمين لم يستطيعوا تقديم نقد حقيقي لمسار العلم الحديث لانشغالهم بالتلفيق فقط وأن: اكتشاف ما ترتب على ممارسة العلم الحديث من مشاكل متعددة لم يكن أبدا من اكتشافات الأصوليين الجدد حيث جاءت أقصى الانتقادات للعلم في الحضارة الصناعية من ناحية الماركسيين والفوضويين[4].

يرى أيضا أن ثمرة التعامل المتأزم للمسلمين مع التقدم العلمي هي كارثة أنه: لم يفلح العلم الإسلامي حتى الآن في إنتاج آلة واحدة أو جهاز واحد كما لم ينتج مادة كيميائية واحدة أو دواء واحد و لم يقدم تصميما لأية تجربة جديدة على العكس اهتماماتهم كانت سرعة الجنة. درجة حرارة جهنم والتركيب الكيميائي

(1) م ن ص18.

(2) م ن ص129.

(3)م ن ص ص132 هناك خطأ فادح في ص 139 وهو تقديم ارنست رينان كفرنسي مسلم.

(4)م ن ص165.

للجن ومعادلات لقياس النفاق وتفسيرات للإسراء والمعراج مبنية على أساس نظرية النسبية[1].

العينات المذكورة موجودة بيننا وزادها تأزما تدخل السياسي في رسم خريطة التنمية العلمية في مرحلة حرجة من حياه الأمة وهي ظاهرة-كما سبق رافقت تاريخ المسلمين- يشير برويز أميرعلى أنه: أثناء حكم ضياء الحق عام 1982 لباكستان قامت الجامعة الدولية الإسلامية في إسلام أباد والمعهد الدولي للفكر الإسلامي بأمريكا بتنظيم ندوة تحت رعاية ضياء الحق (وهو من هو سياسيا) لمناقشة أسلمة المعارف[2].

ستكون رحلة أسلمة المعرفة إحدى حلقات أزمة تعامل العقل المسلم مع أزمة التحدي العلمي وآثاره على العقيدة.

عبد الجبار الرفاعي يخرج المسألة من فنادق الساسة وأرائك الاسترخاء ويرجعها إلى بيئتها الطبيعية:

اهتم بقضية المعرفة علماء الكلام والمتصوفة والعرفاء، فبينما اعتبر المتصوفة المعرفة حالة ذوقية وجدانية مصدرها القلب والحدس والشهود، وأن العلم يتحقق بلا واسطة. ترسَّمَ المتكلمون أسلوب الجدل، وتوسلوا للتدليل على مدعياتهم بالمظنونات والمشهورات والمسلمات، واعتمدوا المنهج العقلي تارة، والمنهج النقلي تارة أخرى[3]. ومنذ ظهور التفكير الفلسفي تَمحورت جهود الفلاسفة والباحثين في الفلسفة حول قضايا (المعرفة) و(الوجود)وفي العصر الحديث نجد الشيخ محمد عبده والشيخ مصطفى عبد الرازق وعلي سامي النشار محمد حسين الطباطبائي

(1)م ن ص174.

(2)م ن ص 175 وص176.

(3) عبد الجبار الرفاعي: تساؤلات حول إسلامية المعرفة مجلة التسامح الصادرة عن وزارة الأوقاف في سلطنة عمان العدد23 سنة صيف2008.

ومحمد باقر الصدر ومرتضى مطهري.

لكن الرفاعي يرى أن: الجهد المميز في هذا المضمار هو جهد محمد إقبال في (تجديد التفكير الديني في الإسلام) الذي درس بعمق طبيعة المعرفة الدينية، وتجليات التجربة الدينية، والحيز الذي تحتله المعرفة الذوقية الشهودية في المعرفة الدينية. يجب التذكير هنا بما سبق الإشارة إليه وهو جغرافية الاجتهادات بين أحمد خان وأمير علي ووحيد الدين خان ومحمد إقبال. قضية المعرفة في الأزمنة الحديثة ساحة تحدي مفتوحة تحتاج للكثير من الجهد المتنوع والعميق لذلك:

ظهرت جماعة فكرية أشهرت مشروعها عبر معهد أبحاث، وعبرت عن نفسها بـ (إسلامية المعرفة) ومعهدها بـ (المعهد العالمي للفكر الإسلامي) الذي تأسس سنة 1981م، وهي ترى أن العلوم الإنسانية والاجتماعية الغربية علوم متحيزة، اصطبغت بلون المحيط الذي نشأت وتطورت فيه، وهي تستند إلى قراءة أُحادية هي (قراءة الكون) فقط تستبعد قراءة الوحي وتعتقد جماعة (إسلامية المعرفة) بأن فلسفة (العلوم الطبيعية) و(العلوم البحتة) هي فلسفة وضعية قاصرة، أفضت إلى منهج وضعي مادي، يفسر ما يجري في العالم على أساس الجدل بين الإنسان والطبيعة، من دون وعي لدور الله في العالم.

هل فعلا تغيب كليا النظرة الدينية أو الروحية في علوم الغرب وهل فعلا تحررت من الدين الذي كان حاضرا في نشأتها وتطورها بهذا القدر أو ذاك وبهذا اللون أو ذاك.يرى اسماعيل الفاروقي أحد مؤسسي مشروع إسلامية المعرفة أن المبدأ الثالث للتوحيد من حيث وحدة الحق هو الانفتاح على الدليل الجديد أو على دليل المخالفة أو عليهما معا فهو يحمي المسلم من الليبرالية والتعصب والنزعة المحافظة المفضية إلى الركود ويتجه هذا المبدأ بالمسلم صوب التواضع الفكري، ويفرض عليه أن يذيل تأكيداته ونفيه بعبارة الله أعلم لأنه على قناعة بأن الحقيقة أكبر من أن

يحيط هو بكل جوانبها على الدوام[1].

هذه المشاعر الإيمانية نقرأها أيضا عند علماء الغرب الذين لم يلحدوا أو لم ينكروا على الأقل وجود قوة خارقة تقف وراء التصميم الذكي للكون ومحاولة تجاوز هذا التيار هو مغالطة منهجية وتاريخية. تنطلق مدرسة إسلامية المعرفة من قراءة تيار في الغرب عرف العقل الديني بأنه ذلك: العقل الملتزم بتعاليم الكنيسة ورؤيتها وفقدت الكنيسة في رأي التجريبيين حجيتها ومرجعيتها في تعليم الحقيقة من أمد طويل بل أن الكنيسة لم تكن يوما ما أهلا لحيازة مثل تلك الحجية والمرجعية وذلك على وجه الدقة لكون موقفها عقدي بالضرورة بمعنى كونه مؤسسا على التسليم بصحة فرضيات معينة دون إخضاعها مسبقا للاختبار التجريبي وللفحص النقدي[2].

أليس العقل الديني الإسلامي أيضا يقوم على التسليم بقضايا عقدية ؟ مع الإشارة إلى أن موقف الكنيسة-كما سبق-تغير في التعامل مع الانجاز العلمي والغرب اليوم ليس كتلة واحدة والعلم لا يتطور فقط في الدائرة اليهودية المسيحية وماذا عن شرق آسيا ؟

انطلاقا من فهم للمشهد العلمي العالمي والإسلامي رأت مدرسة إسلامية المعرفة ضرورة توعية الأمة بالأزمة الفكرية وتحديد معالم العلاقة بين قصور الفكر الإسلامي وقصور منهجيته من ناحية وبين غياب الأمة ومؤسساتها ونظمها وتخلفها علميا وثقافيا وحضاريا من ناحية ثانية وبين ذلك القصور وبين ضعف الأمة وفشل جهودها في التحرر والتقدم من ناحية أخرى وضرورة أن يحل مفهوم الإسلامية محل

(1) إسماعيل راجي الفاروقي كتاب. التوحيد التوحيد مضامينه على الفكر والحياة تر السيد عمر 2010.ص94.
(2) م ن .ص85.

مفهوم التغريب ومفهوم التحديث كمفهوم إسلامي وإنساني شامل[1].

لا تختلف مبررات هذا الاجتهاد عن مبررات التفسير العلمي والإعجاز العلمي واجتهد أصحاب المشروع والمتعاطفون معه في انجاز أعمال فكرية تطبق التعليمات العامة له وسجلت وقعا ما في رفوف المكتبات وقراءات المتخصصين والمتابعين وعامة القراء وكان لابد من الحوصلة: حوصلة المتابعين المتخصصين وحوصلة النقد الذاتي أيضا: من أمثلة الفريق الأول: ما لاحظه عبد الجبار الرفاعي[2] أن جماعة إسلامية المعرفة توسلت لبلوغ هدفها بعقد حلقات نقاشية وندوات ومؤتمرات، وإصدار دوريات، وكتابة دراسات وكتب، وتأسيس مراكز بحوث، ومؤسسات أكاديمية ولكن بموازاة هذه الجماعة كانت هناك جماعة أخرى في إيران، وتقدم صياغة مختلفة لفهم معرفي، يفسر طبيعة المعرفة الدينية بريادة عبد الكريم سروش، ويستند طرحه على أن الدين والمعرفة الدينية أمران متغايران (وليسا متعارضين أو متضادين).

وأن الدين ثابت، ولا يطرأ عليه أي تغيير أو تحوّل وأن المعرفة الدينية إحدى أنواع المعارف البشرية والمعارف البشرية مترابطة ومتداخلة مع بعضها وهي أيضا متحوّلة ومتغيرة.

القراءة السياقية للأفكار السابقة تحتاج إلى روية ودقة وبعض تلك الأفكار موجودة في مكتبتنا الفكرية بصور أخرى وهي محل متابعة ودراسة ونقد من باحثين صارمين والرفاعي ينبه إلى أن المدرستين سيطرتا على الخريطة الفكرية في العالم الإسلامي من سنة 1980 إلى 2000.

قرأ الرفاعي أبعاد و نتائج مشروع إسلامية المعرفة نقديا ولاحظ إن:

(1) الفاروقي في كتابه إسلامية المعرفة المبادئ العامة خطة العمل الانجازات دار الهادي بيروت 2001 ص131.

(2) عبد الجبار الرفاعي: تساؤلات حول إسلامية المعرفة م،م،س.

1- النقد للمعرفة الحديثة يقابله التبجيل لتراث المسلمين.

2- تجريد العلوم الإنسانية الغربية الحديثة من مناهجها وأدواتها ومرتكزاتها يؤدي إلى تفريغها من محتواها، وبالتالي ستنتهي عملية الأسلمة إلى تناقض منطقي، باعتبار أن ماهية العلم تعني موضوعه، وأن تمايز العلوم بتمايز موضوعاتها كما قرر المناطقة، فإذا جرى تغيير موضوع العلم ومناهجه يغدو علما آخر؟

3- إن العلوم الحديثة تنبثق عن رؤية كونية حديثة، وهناك فارق شاسع بين الرؤية القديمة والحديثة، والعلم الحديث انبثق من رؤية جديدة للإنسان والطبيعة والحياة،.

4- اتخاذ آثار ابن تيمية مرجعية شاملة لجماعة من الباحثين والدارسين في دائرة إسلامية المعرفة رغم أن آراءه في العقيدة والتفسير وعلوم القرآن والفقه وغيرها هي آراء خلافية. يقابله إهمال للحوزات العلمية في النجف رغم ثرائها في قضايا المشروع.

5- (إسلامية المعرفة) قضية فلسفية ترتبط بالابستمولوجيا وفلسفة العلوم، كما ترتبط بمباحث نظرية المعرفة، غير أن الدراسات في مشروع إسلامية المعرفة تقاربها من منظور فلسفي، مضافا إلى عدم استيعابهم لآثار المتصوفة والعرفاء والمتكلمين،

6- إهمال لمباحث فلسفة الدين وفتح باب الاجتهاد في أصول الدين، ومحاولة صياغة ثيولوجيا تتحرر من مقولات اللاهوت التقليدي، الذي كرس صورة مرعبة للإله ، التفكير الديني من دون تحديث التفكير الكلامي؟

7 - غياب المراجعة النقدية لأفكار وتجربة إسلامية المعرفة،. ولماذا لم تتشكل حتى اليوم النواة الجينية لعلم اجتماع إسلامي أو علم نفس إسلامي أو علم اقتصاد

إسلامي[1].

الأفكار التي طرحها عبد الجبار الرفاعي بعضها موجود عند من تناول المشروع بالتحليل والنقد كعبد المجيد النجار الذي اعتبرها أقرب إلى النخبوية خصوصا مع غربة مركزها الجغرافية، وازواوي بغورة الذي رآها أقرب إلى المشكلة منها إلى الحل ولكن هناك شبه حوصلة لأهم المؤاخذات على المشروع بين النقد العلمي والانطباع الذاتي رصدها أحد القائمين على المشروع فتحي حسن ملكاوي والذي ينسخ فكرة عدم وجود نقد ذاتي جزئيا.

النقد الذاتي لإسلامية المعرفة

لاحظ فتحي حسن ملكاوي أن هناك تنازعا على الشرعية التاريخية لمشروع التأسيس ففي محاضرة في الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا في 1992، قال د.سيد محمد نقيب العطاس إنه أول من ابتكر مصطلح أسلمة المعرفة، وتمت سرقته منه.كما أن د. سيد حسين نصر لمح في عدد من كتاباته أنه صاحب الفكرة الأولى إلى جانب أزمة البصمة الوراثية للمشروع هناك أيضا غياب العمل الحقيقي في ضبط المصطلح نفسه من حيث كونه إسلامية المعرفة (مشروع المعهد العالمي للفكر الإسلامي) أو أسلمة المعرفة، أو إسلام المعرفة (مشروع معهد إسلام المعرفة في جامعة الجزيرة) أو التأصيل الإسلامي للمعرفة (مشروع جامعة الأمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض) أو التوجيه الإسلامي للعلوم (مشروع جامعة الأزهر بمصر). يجمع الملكاوي أيضا بعض الأفكار النقدية للمشروع يحللها ويرد عليها فهو يشير إلى نقد محمد أمين العالم الذي رأى أن المشروع لا يحمل أي برنامج موضوعي للإصلاح والتغيير والتجديد وهو مجرد رد فعل رافض للأوضاع المتخلفة المتردية

(1)عبد الجبار الرفاعي:تساؤلات حول إسلامية المعرفة م،م،س.

كما يعرض موقف نصر حامد أبو زيد الذي رأى أن الدعوة إلى أسلمة العلـــوم والآداب والفنون دعوة ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب تؤدي إلى تحكيم الفكـــر الديني الخاضع لملابسات الزمان والمكان وأن هذه الدعوة تنتهي إلى محاكم التفتيش التي تجرّم كل اجتهاد إنساني في كل المجالات المعرفية فتصمه بالإلحاد، لأنّه لا يتوافق مع فهم رجال الدين للنصوص الدينية. كما يتوقف الملكاوي عند نقد ضياء الدين سردار وكتابه الصادر 1989في باللغة الانجليزية: "هلال مبكر: مستقبل المعرفـــة والبيئة في الإسلام" والذي يشير فيه إلى أن فكرة الأسلمة وردت في كتاب ســـيد نقيب العطاس عام 1969، وكانت الفكرة تهدف إلى تحرير الناس في عالم الملايو من التقاليد الخرافية. أما بدايات البناء النظري لنظرية الأسلمة فإن سردار يتتبعها في مؤتمرات جمعية العلماء الاجتماعيين المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية، ممثلا لذلك بورقة لجعفر شيخ إدريس في المؤتمر الرابع عـــام 1975 بعنـــوان "العلـــوم الاجتماعية الإسلامية: معناها وضرورتها"، وبورقة أخرى لجعفر شيخ إدريس قدمها في مؤتمر اتحاد الطلبة المسلمين عام 1977 بعنوان "عملية الأسلمة". لكن إسماعيل الفاروقي في رأي سردار هو الذي طور نظرية الأسلمة وذلك عندما وجه الفاروقي ثلاث تهم أساسية للعلوم الاجتماعية الغربية، الأولى إنكار صحة وجود معلومات قبلية تتعلق بأسئلة الروح والأخلاق، والثانية تقديم معنى خطأ للموضوعية، والثالثة مناقضة مبدأ الوحدة الذي يعدّ أساسياً في المنهجية الإسلامية،إما إسلامية المعرفـــة عند جعفر شيخ إدريس فتتضمن قبول جميع الحقائق المكتشفة بـــالتفكير العقلـــي والتجربة وتضيف إليها في المواقع المناسبة من المجالات المعرفية المختلفة الحقائق التي توردها المصادر الإسلامية الأساسية في القرآن والسنة والبحث عن السنن التي يمكن بواسطتها تفسير تلك الحقائق، ومن ثم تطوير نظريات جديدة واستبعاد الافتراضات الفلسفية غير الإسلامية للعلماء الغربيين ووضع جميع تلـــك الحقـــائق والقـــوانين والنظريات في إطار مرجعي إسلامي، ويرى سردار أنه من الخطأ المنهجي البحـــث

عن دليل تجريبي لدعم النص الديني أو الدليل الديني لدعم النتائج التجريبيـــة. وأن إسلامية المعرفة بهذه الصورة لن تقدم نتائج صحيحة بشكل مطلق، بل إنها ستؤدي إلى وجهات نظر إسلامية مختلفة ونظريات علمية إسلامية مختلفة تماما كما عرفت العلوم الإسلامية التقليدية تعددية في الفهم والنظر، ويرى سردار أن نظرية إدريس هذه أكثر بساطة ووضوحا من نظرية الفاروقي، لكن النقد الأساسي الذي يوجهه سردار إلى جعفر شيخ إدريس هو صمته عن كيفية وضع جميع الحقائق التي يـــتم جمعها في إطار إسلامي وما الذي تتضمنه هذه العملية وكيف نحققها. بينما يفهم سردار أن التطبيق العملي لخطة الفاروقي في الأسلمة يقوم على افتراض أساسي هو البدء بالمجالات المعرفية كما هي معروضة الآن في سياقاتها الغربية مع شـــيء مـــن الحذف والإضافة لبعض المبادئ والقيم ليتم بذلك تحقيق الأسلمة، ويقتبس سردار نقد بارفيز منصور لخطة أسلمة المعرفة عند الفاروقي ذات طبيعة خطية ميكانيكية، وتتجاهل التداخل بين الرؤية الكونية والمجالات المعرفية (التخصصات) والإلهيات، وأن الأسلمة بهذه الدلالة أشبه بالجراحة التجميلية: أي التجميل الإبســـتمولوجي. وإذا حققت أي هدف فلن يكون أكثر من تكـــريس ثنائيـــة المعرفـــة العلمانيـــة الإسلامية[1].

(1) فتحي حسن الملكاوي: حوارات إسلامية المعرفة: عرض وتحليل. مجلة إسلامية المعرفة السنة السابعة العدد 25.

خاتمة مع وقف التنفيذ

إسلامية المعرفة تريد فرض الرؤية الدينية على اجتهادات الإنسان في اكتشاف أسرار الكون وأسرار الكون الصغير الإنسان، وبتأمل عناصر المشروع يمكن توسيع الخلفية من أسلمة المعرفة إلى تديين المعرفة لأن الضوابط التي يريد أصحاب مشروع إسلامية المعرفة اقتراحها للعلماء لتفادي الكوارث هي تقريبا عين الضوابط الموجودة في منظومات دينية أخرى (فيزيائيا Pierre Maurice Marie Duhemدافع عن موقف الكنيسة إذ يرى أنها رفضت التفكير الميكانيكي للطبيعة الذي أراده غاليلو الذي يقدم اليوم كقربان للعلم)

لقد كانت الصين متقدمة على أوربا علميا وصناعيا وتميزت الهند بإرث حضاري غني فلماذا لم يزدهر العلم في هذين البلدين كما حصل في أوربا، لم يكن في وسع العلم الحديث أن يظهر في أحضان الثقافة الصينية لأن التاوية تعتقد أن العلل الحقيقية لظواهر الطبيعة هي أمور روحانية خفية كما أن تعاليم كونفشيوس التي راجت هناك تؤكد على الأخلاق والسلوك الاجتماعي بينما تهمل قضايا الوجود والطبيعة ...الثقافة الهندية كانت تعتبر المنهج التجريبي وهميا ولا يتمتع بالواقعية ..الإنسان الغربي النصراني يعتقد أن العالم ظاهرة ايجابية لأنه خلق من قبل الله العادل كما أنه قابل للتعقل والاكتشاف لأن خالقه حكيم ومدبر والله أمر البشر بإعمار الأرض واستيفاء خيراتها[1].

التوحيد الإسلامي وسلامة مصدر الإسلام من التحريف يعطي ضمانات أصلب وأقوى لحركة العقل البشري في مسيرته نحو استنطاق الكون.

التفسير العلمي والإعجاز العلمي وأسلمة المعرفة هي استجابات العقل المسلم في بيئات وأزمنة متغيرة لتحدي اللحاق والتجاوز لمسيرة العلوم حوله:قراءته للقرآن

(1) مهدي كلشني: العلم الديني.م.م،س.ص18.

وحسن استماعه لصوت الفطرة السليمة يزيدان من توتره ويرفعان من درجة شدة الصدمة، وفي هذه الحالات لا يمكن أن تنتج معرفة مستوفية شروط الصرامة العلمية والدقة المنهجية، هي تؤذن بوجود كيان حي قادر على التقدم ريثما يسترجع توازنه وعندما تتحرر ساحة هذا الابتلاء من أي بائع للوهم حتى وأن كان بغلاف آية أو حديث.